ليالي الزعبلاوي

روايـــة

د. إيهاب سلام

طبعة أولى

٢٠٠١ م

دار الأيام
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - هـ: ٢٢١٦٩٠٤
بيروت - هـ: ٠٣/٧٧٥١٢٤

الزعبلاوي

لم يكن عنبرنا أو زنزانتنا بالأحرى يسودها العداء ، إنما كان يجمع شملها الود والصفاء . وكان الزعبلاوي قد تحول من رجل ساكت لا يتكلم إلى راوية ليس له مثيل . كنا نعود إلى العنبر بعد يوم شاق حافل بالمتاعب ، وما نكاد نجلس على الأرض في هيئة حلقة ، حتى يستحث أحدنا الزعبلاوي أن يروي لنا قصة من قصص الحياة . وكان في جعبته الكثير منها . وكان يستمد أغلبها من واقع المساجين الذين مروا عليه وسمع حكاياتهم . وصارت مهمته أن ينقلها من هؤلاء المساجين إلينا .

لم يكن هذا هو اسمه الزعبلاوي . إنما كان قد اشتهر بهذا الاسم على اعتبار أنه لازم سجن أبي زعبل مدداً طويلة لا نعرف حدها الأول ولا حدها الأخير ، فقد دخلنا على هذا العنبر ، وجلسنا بين المساجين لأننا منهم ، وشملنا الود والصفاء ، وكان الزعبلاوي يروي القصص قبل أن ننزل ضيوفاً على الزنزانة ، واستمر يرويها حتى بعد أن رحل بعضنا عنها .

كان له أسلوب شيق في الحديث . وكان البعض منا يستمع قتلاً للوقت . والبعض الآخر يتتبع الأحداث بشغف . لكن لم يكن منا من يرفض أن يستمر الزعبلاوي في الرواية .

حينما يأتي المساء ، ينطلق الزعبلاوي راوياً .
قال :

تزوير على المدى البعيد

ذلك هو اسم قصتنا في هذه الليلة .

يمكن أن يكون الفقر هو الذي رسم لعبد الغفار ذلك المخطط . إذ اختمرت معالم الجريمة في ذهنه جيداً . واقترب من صديقته زميلته في محل بيع الملابس الجاهزة . انزعجت البنت من المخطط ، لكن بعد إلحاح قبلت تنفيذه . كان المخطط أن يسرق عبد الغفار البطاقة العائلية لنعمان المرجوشي صاحب المحل . ويخلع منها الصورة المختومة ليضع بدلاً منها صورته المستخلصة من بطاقته والمختومة أيضاً بخاتم النسر . وتتزوج قدرية من عبد الغفار على أساس أنها تزوجت من نعمان المرجوشي . ويثبت المأذون بطبيعة الحال اسم نعمان المرجوشي في وثيقة الزواج ورقم بطاقته وتاريخ وجهة إصدارها . كان المقدر إذا أنجبت قدرية ولداً أو بنتاً أن ينسب إلى نعمان المرجوشي . وحينما يموت نعمان تظهر قدرية وأولادها ليطالبوا بنصيبهم في تركة نعمان . وحينما تستولي قدرية على الجزء الأكبر من التركة .. وتوفي شهور العدة يتقدم إليها عبد الغفار ليتزوجها . ويعيش معها في التبات والنبات . ولا أهمية أن ينتسب الأولاد إلى نعمان أو إليه فالإنسان قادر في أي وقت أن يغير من

اسمه . ويمكن بعد حين أن يغيروا أسماء الأولاد ويكون الأب عبد الغفار بدلاً من نعمان المرجوشي . المهم هو الثروة الطائلة .

سألته وقد سكنا حجرة في إحدى أسطح عمارة من عمارات الجيزة أستأجرها فور الزواج .

– وماذا يحدث لو أننا متنا قبله ؟ ..

يقول بثقة :

– في هذه الحالة لا يكون الله قد رضى عنا ، وحرمنا من أن نتمتع بثروته . وإذا مت أنا وحدي فإنك قادرة على تنفيذ المخطط . ولن تخافي أن تواجهي امرأته العاقر التي لم تنجب . ولن يطعن أحد في صدق كلامك لأن وثيقة الزواج ثابت بها أنه تزوج منك . وأن أولادك منه يحملون اسم أبيهم .

غير أن نعمان أختفي فجأة . ووجدت سيارته في صحراء الماظة خالية من أي نقطة دم .

وكانت قدرية قد أنجبت ولداً ثم بنتاً ، نسبتهما إلى نعمان . وزعمت ، وهي لا تزال بائعة في المحل أنها تزوجت ، لكنها لم تكشف عن وثيقة الزواج ، ولا من هو زوجها . وظن العمال أنه بائع حقير مثلها يعمل في محل آخر . وحملت ونعمان لا يزال يظهر على وجه الأرض ، وباركها أمام جمع من العمال .وكان عبد الغفار لا يزال يدعي انه أعزب لم يتزوج . وليس له صلة بأي امرأة . ويتمني أن يتزوج لكن الحيلة هاربة من اليد . والجيوب تصفر صفيراً خافتاً .

طفقت الشرطة تحقق في اختفاء نعمان المرجوشي ، غير أنها لم تتوصل إلى أي خط . وظهرت قدرية في ذلك الوقت تطالب بجزء من التركة بل غالبية التركة لأنها متزوجة من نعمان منذ سنوات في السر .ولها منه ولد وبنت .وكان يؤكد لها أنه سيعلن الزواج وسيعترف بالأولاد في العلن ، لكنه كان يتراجع . كان - كما قالت - يخشى سلطان امرأته عليه . وفي ذلك الوقت غادر عبد الغفار بيت الزوجية ليقيم لدي صديق له مدعياً أن بيته قد سقط سقوطاً لا أمل في إصلاحه .

كذبتها أرملة نعمان وأبلغت الشرطة وادعت أن لها يداً في اختفاء زوجها . وقدمت قدرية باقتدار وثيقة الزواج وتمت مضاهاة أرقام البطاقة بالأرقام الواردة بالوثيقة فأتضح أنها واحدة . وكان عبد الغفار قد خلع من جديد صورته من على البطاقة بعد أن تم زواجه وكتابة عقد تأجير الحجرة وأعاد صورة نعمان إليها . ودس البطاقة في صندوق أمام نعمان ، وفرح الرجل إذا وجدها وكأنها لم تغب عنه يوماً . يوم عقد قران عبد الغفار على قدرية تحت اسم نعمان . وقدمت قدرية للشرطة أيضا شهادتي ميلاد الطفل والطفلة ومبين بهما اسم الأب نعمان واسم الأم قدرية .

تحرت الشرطة عن عقد إيجار الحجرة الواقعة فوق السطح ، فعرفت أن صاحب البيت تعاقد مع نعمان المرجوشي على هذه الحجرة . ولا يذكر صورته لأن المرأة هي التي كانت تدفع

الإيجار شهرياً . وأكد الناس أن السيد نعمان كان يعيش مع قدرية في هذه الحجرة . لكن لم يؤكدوا أو ينفوا أنه كان يغادرها كل يوم لأن ذلك الأمر لم يعنيهم وعُرضت عليهم صورته فلم يقطع واحد في أمره لأن ملامحه غائبة عنهم . وكان عبد الغفار قد تعمد ألا ينشئ صداقات بينه وبين الجيران .

رفضت الأرملة أن تعطي قدرية شيئاً من التركة ، فلجأت إلى أحد المحامين . وقدم كل مستنداتها للقضاء . وحكمت المحكمة في إعلام شرعي أن ورثة نعمان المرجوشي المفقود هم قدرية وولدها وطفلتها منه بالإضافة إلى زوجه الأولي جمالات . ولم يكن لها نصيب غير مشاركة قدرية في ثمن التركة .

كل ذلك وعبد الغفار بعيد عن المنازعات . يدفع فقط قدرية إلى المحامي الكفء . ويلتقي سراً بها ليتمتع بها في غفلة من الزمن . وكانت خائفة وتسر له بمخاوفها قائلة :

– ماذا يحدث لو أن نعمان ظهر فجأة ؟ ..

قال مؤكداً :

– كيف يظهر وقد اختفى منذ ثلاث سنوات .. وحتى لو ظهر وأنكر أنك تزوجته فأين سيجدك ؟.. سوف نبيع كل شيء ونختفي .

– وإذا ما ظهر ولم نكن بعنا كل شيء ؟ ..

– تكون الطوبة قد احتكت بالقدم المعطوبة .

وفعلاً ظهر نعمان المرجوشي بعد أربع سنوات . وكانت الدار التي اشتراها قد بيعت وطردت منها أرملته . كما باعت قدرية ما يخصها في محل بيع الملابس .. وأختفي عبد الغفار وقدرية من القاهرة ومعهما الطفل والطفلة . وصارا يتمتعان بالثروة في مكان ناء بعيد عن العيون . أما الأرملة فقد كانت لديها بعض الأموال السائلة ، واستطاعت أن تستمر تدير المحل بنصيبها الضئيل فيه

وفوجئت بعدد من الشركاء ، كانوا قد اشتروا نصيب قدرية وولديها في غفلة من المجلس الحسبي .

استطاع نعمان المرجوشي أن يثبت أنه كان مخطوفا هذه الفترة من الزمن . وكان خاطفه - كما يتراءى له - أحد المنافسين الأقوياء لكن لم يكن ليعرف أين المكان ولا من هم هؤلاء المنافسون .واستطاع في لحظة من لحظات القدر أن يهرب من المعتقل ليلاً . ولا يتمكن أن يعود إليه فالظلام دامس والأرض مجهولة . وقرر أمام الشرطة أنه لم يتزوج غير زوجته وأن الوثيقة مزورة لأن التوقيع عليها ليس توقيعه . وكان من اللازم في هذه الحالة العثور على المرأة المختفية المدعية الاقتران به . وعن ذلك الرجل الذي حل محل نعمان المرجوشي في توقيع عقد الزواج . ولم يخطر على بال أحد أنه عبد الغفار . وكان قبل أن يختفي قد افتعل شجاراً مع مديرة المحل الأرملة وترك لها المحل فاعتبر أنه عامل مفصول لغيابه دون أذن ولمحاولة الاعتداء على

صاحب العمل . ولم يحدث أن تم الربط بينه وبين ادعاءات قدرية التي أكدتها بالوثائق المزورة .

دق الحارس الباب وأمرنا قائلاً : ناموا .

وتوقف الزعبلاوي عن الكلام حتى ينام .

نار الانتقام

كان نور الزنزانة خافتاً كأنما يحتضر ، حينما اضطجع الزعبلاوي على وسادته ليواصل لياليه معنا . وطفق يروي ونحن نتحلق حوله :

انضم محمود سعيد إلى عصابة تتاجر في الأفيون . ترأس العصابة لأنه هو الوحيد العجوز الوقور والباقي من الشباب المتهور . كان ينطبق عليه المثل أن كل قصير مكير فتغلب بدهائه على جميع أفراد العصابة من الشباب وجذبهم إليه . حتى المنافس الخفي له جلال عبد الهادي انصاع واستسلم . كان جلال يتطلع لرئاسة العصابة . ولم يكن أمامه إلا أن يخفي حقده وغله ويساير الوضع حتى تنجح العصابة في السيطرة على سوق الأفيون . وتمكن بعد أن سيطر على شباب العصابة أن يقصي محمود سعيد عن رئاسة العصابة ويعتقله . لم ينطبق عليه المثل القائل كل طويل هبيل ، فقد كانت عيناه تشبهان عيني الساحر ذاتي وميض غريب يهزم خصمه ولا يجعله يتكلم إنما يتلجلج .

ولما سيطر جلال على أفراد العصابة ، أخفى محمود سعيد فترة من الوقت حتى كسرت شوكته وأطلق سراحه لما وجد نوعاً من التذمر بين أفراد العصابة . وبطريقة سرية قاد الحنين محمود سعيد إلى تأليف عصابة جديدة . إذ ذاق حلاوة القرش الحرام واصبح لا يقبل أن يتضور جوعاً فهرع إلى مصرف الحرام

يقترض منه . غير أن جلال عبد الهادي كان يترصده تماماً ، فاضطر أن يختطفه مرة أخرى ، وأعتقله في مكان آخر ، فرض عليه فيه الحراسة القوية . كان يخشى أن يهرب ويذيع في لحظة حقد أسرار ومخططات العصابة أو يتآمر ضدها بالتحالف مع العصابات الأخرى أو يشي بالعصابة لدى الشرطة وهو يظهر بمظهر المواطن الأمين . ولم يتمكن محمود سعيد من الفرار من ذلك البيت النائي في أقاصي الصعيد .

استمر جلال عبد الهادي يحكم العصابة بقوة الحديد والنار . ويضع مخططات التسليم والتسلم . صرح في أول حكمه للعصابة أنه رجل مسالم ديموقراطي ، كل هدفه هو رقي أفراد العصابة ، لكنه أظهر نواياه في السيطرة وفرض الرأي ، حينما عارضه أحد زملائه في مخطط يرسمه . أختفي الشخص ولم يعد يحضر اجتماعات العصابة . وعرف كل الأعضاء البارزين أن من يعارض سيكون مصيره مثل مصير المختفي . قد يُصفى أو يُستبعد أو يُحال بعيداً عن العصابة .

ولما ظن بعض هؤلاء البارزين أن الثروات التي تؤول إلى العصابة لا بد أن توزع بالتساوي ، لأن لا فضل لأحد على أحد . صار جلال يستغني عن خدمات الواحد بعد الآخر . ويلزمه أن يبقى في داره ويتصرف في حياته في حدود ما آل إليه من مال . وهو مال هائل ليس لدى واحد من الناس ما يضارعه قدراً . وكان يدفع بدماء جديدة إلى أفراد العصابة ليست لهم مطامع إلا العيشة

الهنيئة وليست لهم تطلعات للسيطرة أو إدارة دفة العصابة أو منافسة جلال في منصبه .

فوجئ جلال أن مخططاته تتعارض مع مخططات عصابة أخرى . عرفت بعصابة النجمة الحمراء . عصابة تتاجر في كل شيء : الحشيش والأفيون والنساء والصبايا . تتعامل بالمدفع والرصاص وقادرة على الدفن في الماء والإذابة تحت الأرض . وشاء جلال أن ينافسهم في صفقاتهم لذلك ترصدوا خطواته . وكان السبيل إلى تنحيته هو العمل على إفلاسه . هاجموا شحنة كبيرة في طريقها من سوريا إلى القاهرة عبر سيناء . ولم يستولوا على الشحنة إنما دمروها عن آخرها . هاج جلال عبد الهادي وماج وصمم أن ينتقم من العصابة .

وإزاء مكر العصابة الجديدة ووقوف بعض العصابات العالمية الكبيرة بجانبها عقد معها صلحاً بالهاتف . وظن أنهم لن يعترضوا طريقه مرة أخرى .

فوجئ بعد مرور أيام محدودة أن العصابة لم تنس تصرفاته معها ونقضوا الصلح نقضاً مبرماً . وتمكنوا من قطع الطريق على بعض أفراد عصابة جلال ولم يعد يستطيع تهريب البضائع السامة عبر الصحراء . صار مضطراً أن ينقلها بالطيران أو عبر البحار ويتعرض لتكاليف كثيرة أو افتضاح أمره في بعض الأحيان : وكان النقل بهذه الطرق مكلفاً أرهق موارده المالية . وسمع همهمات طويلة بين أفراد العصابة الجدد تطالبه بالرضوخ

لشروطهم . وكان من بين شروطهم أن يكون لهم نصيب في الصفقات التي يعقدها . لكن رأس جلال الحجري لم تلن وصمم على أن يقاوم عصابة النجمة الحمراء مقاومة لا تهدأ .

مثلما استولوا على بعض البضائع التي كانت منقولة إليه . استولي هو الآخر على بعض بضائعهم . ومثلما قتلوا رجالاً كانوا يعملون في صفوف عصابته قتل رجالا يعملون على مساندتهم . واشتعلت نار الانتقام بينه وبينهم واصبح من الصعب إطفاؤها . وتمكنت النجمة الحمراء من الاستيلاء على مخازن جلال عبد الهادي ولم يستطع أن يرفع الأمر إلى القضاء حتى لا يُكشف أمره .

يبدو أن القلق والأرق والهموم استطاعت أن تغلق حجر جلال الصلد فسقط صريع المرض . ولما أفاق منه لم يستطع أن يكمل المشوار فسقط جثة هامدة لا تعاني من شيء .

أطلق رئيس العصابة الجديد سراح محمود سعيد لينعم بالحرية دون زاد ، ولم يفكر محمود أن يعزي في أربعين جلال عبد الهادي حتى لا يتهم بالشماتة . وكانت نار الانتقام قد خمدت في صدره .

في ذلك اليوم دق الحارس باب الزنزانة علينا مبكراً وقال : ناموا .

وسكت الزعبلاوي عن الكلام ونام .

استرداد المخازن الغالية

تجمعنا حول الزعبلاوي لنسمع قصة جديدة ، غير أن الزعبلاوي أشار إلى قصة جلال عبد الهادي رئيس العصابة الذي مات كمداً لأنه لم يستطع أن يتغلب على عصابة النجمة الحمراء . ولم يتمكن من أن يسترد المخازن الغالية المليئة ببضاعة وفيرة من الأفيون . وسكت فترة طويلة حتى استطاع أن يجمع عناصر القصة الجديدة في رأسه ثم قال الزعبلاوي :

تولى أمر العصابة شخص لم يكن في الحسبان . كان عمدة من عمد الريف المصري . ينتمي إلى العصابة قلباً وقالباً لكنه لم يكن يظهر في الصورة . حينما أختلف البارزون فيها على من يتولى أمر العصابة . تقدم مخترقاً الصفوف فأتفقوا على أن يتولى أشرف أبو الكرامات الأمور جميعها ويدبر الخطط ويعقد الاتفاقات ويبرم الصفقات ويصرف المخزون .

كان داهية . ظنوا في البداية أنه طفل مولع بالخمر والنساء والمخدرات . لكن فجأة تمكن أن يطيح بكل البارزين الذين أختاروه . وصنع أفيوناً جديداً غير الذي كان يصرّفه عبد الهاذي . واصبح يسمي بأفيون الأشرف . كان يشعر من يتعاطاه أنه يحلق في العلياء وانه حر يفعل ما يشاء ويتكلم ما يشاء . لكن لم يكن المتعاطي يعرف أنه يخرب عقله ويفسد أخلاقه

ويضعضع مقوماته . وأفتخر أشرف بين أفراد العصابة أنه ابن بلد ويلعب بالبيضة والحجر .

أبرز الجرائم التي أرتكبها الأفراد البارزون في العصابة . وكانت بعيدة كل البعد عن تجارة الأفيون . كان أحد البارزين قد قتل شخصاً فأبلغ الشرطة عنه وقبضت عليه وحققت معه وأدين وغيبه السجن . وتلاه الآخر في جنحة نصب - نصب على جمع من الفلاحين - وثبتت التهمة عليه ، ودخل الزنزانة وهو كظيم . وهكذا بدأ يتخلص من العتاولة واحداً واحداً . حتى اصبح يمرح في الميدان وحده . ولم يكن أحد من أفراد العصابة يدرك أن أشرف أبو الكرامات يشي بأحد . إنما كان يبدو كأنه بعيد كل البعد عن مسارح الجرائم وعن الابلاغ عنها .

كانت هناك شوكة تقف في حلقه ، هي تلك المخازن الغالية التي فرط فيها سلفه بجهله وعنجهيته . فأرسل البصاصين يتحرون الموقف بالضبط . وكم من الحرس يحرس المخازن . وكم من نوبة يتبادلونها ؟ .. وما هي الأسلحة التي يتسلحون بها ؟ .. وكيف يمكن مقاومتهم ؟ ..

وجمع شباب العصابة وطلب منهم أن يستعدوا لأن ميعاد الأخذ بالثأر آت عما قريب . وتحمس الشباب حماساً لم يشهده أشرف من قبل . وعرف أفراد عصابة النجمة الحمراء فتحصنوا . واصبحوا يسخرون من ذلك المهرج الذي يريد أن يطحنهم .

وأرسلوا العيون تتحرى عن قوة عصابة أشرف أبو الكرامات . وعادت تقول إنها قوة هزيلة يمكن سحقها في دقائق .

لكن أشرف كان يخبئ لهم المفاجأة . وفي ساعات قليلة استطاع أن يسترد مخازن العصابة الغالية . لم يكتشفوا أنه يخبئ سلاحاً جديداً . وأن عتاده من الأسلحة كان وفيراً . وسهر يومها حتى الفجر يسمع الأناشيد والأغاني ويشرب الكأس بعد الأخرى ويحلم بالتوسع في التجارة .

وكان في عصابة أشرف جناح يتكون . يذيع أن أشرف يغتنم نصيب الأسد في المكاسب ويلقي إلى الآخرين بالفتات . وما يزال يمارس استبداداً في الخفاء بعكس جلال الذي كان يمارسه في العلن . ولم يأبه أشرف لهذا الجناح وظل يتصرف كما يحلو له ويباغت الجميع بقرارات فجائية . واستمر في تسيير أمور العصابة بيد من حديد في الخفاء ، ويبدو على الوجه ملامح اللين والغباء والقلب الحنون .

وأصر أحد أفراد الجناح على تصفية أشرف أبو الكرامات . وكان جالساً في جمع من الأصدقاء ، يستعرض أعماله ، ويفتخر بذلك اليوم الذي استرد فيه المخازن الغالية ، ووضع حراسة لا تنام حولها . أخرج المناهض مسدسه وأطلق الرصاص في قلب أشرف أبو الكرامات . فخر صريعاً وهو ينطق كفى .. كفى ..

وقبض الأصدقاء على المناهض ، وقادوه إلى المخفر . وقالوا لمأمور المخفر : هذا الرجل قتل العمدة . وسأله المأمور لم

قتلته ؟ .. ولم يجب . كان كل ما يريده أن ينهي سيطرته على العصابة ، وهو يعرف أن حياته ستصبح بعد شهور عدماً .

جاء إلينا في الزنزانة ، وبعدها صدر الحكم عليه بالاعدام . لم يكن إلا ذاهلاً كأنه يستغرب كيف قتل إنساناً بغير حق ؟ ! .. ومنه عرفت كل الأحداث .

ألتفت أحدنا إلى الزعبلاوي وسأله :

– وما هي تهمتك أنت يا زعبلاوي ؟ .. أو بالأحرى فيما أُدنت ؟ ..

وهنا دق الحارس الباب وهو يقول صارخاً : ناموا .

وأخلد الزعبلاوي على الفور إلى النوم ، ولم يجب عن السؤال ، وكف عن الكلام .

هارب من السجن إلى السجن

استمرت ليـالي الزعبلاوي ، كمـا لـو كـانت نسمة تهب على سكان الصحراء وقت الهجير . تمتعنا بها وصرنا ننتظرها كل يوم تثير الأشجان فينا . وتحرك العواطـف . وقد استمرأ الزعبلاوي الرواية فلم يتوقف أبدا . كنا ندعو أن تنقضي أيـام سجننا دون أن يتوقف عن القص . وكان يروي كأنه لن يخرج من السجن . وكنا نستمع في لهفة كأن سجننا سوف ينصرم غداً . كنا كهـؤلاء الذين ينتظـرون مسلسـل التلفـاز اليومـي . يتركون العمل ولا يهرعـون خارج بيوتهم انتظارا له . ولـو أن هنـاك نفـرا منـا لـم يكـن يبـالي بقصص الزعبلاوي ، وإن كان يتنصت إليها من بعيد .

راح يروي لنا قصة السجين الهارب من السجن إلـى السـجن . قال : أنتم تعلمون ما كان يصادف المساجين السياسيين مـن عنـت وعذاب .. ونفخ .. وتقليم شاق للأظافر . شد جذب جلد وتعجيز . وقد يخرج السجين بعد عذاب شديد ناقصا لعيـن أو زائـدا لمـرض مـن الأمـراض . وكـان صـاحبنـا ينتمـي إلـى الأخـوان المسـلمين . وعرف أن قدره سوف يقوده إلى زنزانة مظلمة رطبـة . رائحتهـا تحـرك الغثيـان . وفراشـها يثـير الحكـة . عـلاوة علـى مـا سـوف يصادفه من عذاب . يحط من الكرامة ويهد الحياة في كل لحظة . قرر الشاب أمرا ، والخوف يطارده بأقدام أربعة . كوحش كاسر

أن يدخل السجن سجيناً عادياً وأن يخفي أفكاره ولا يدخل سجيناً سياسياً .

حلق شاربه ولحيته ، واشترى سروالاً أسود . وخرج في الليل ملثماً . ومعه " أجنة " ومطرقة . وطفق يتأمل الحوانيت المختلفة وبدأ مع حانوت للمجوهرات . وبالقرب منه شرطي يحرس هذه الدكاكين الفاخرة . وخلع باب المحل في ضجة ، ورفع ستائره الحديدية . وغاص في الظلام ، وهو يحاول أن تصدر عنه أصوات مزعجة تقلق النائم . وتؤرق المتناوم . وصفر الشرطي صفيرا صارخاً . ودخل الحانوت وهو يحاول أن يكسر الخزانة ليستولي على ما فيها من ذهب ولآلئ ومرجان كأنه على بابا دخل مغارة اللصوص . ورسم على وجهه الفزع والشرطي يداهمه وآخرون .

اقتيد الفتي إلى القسم . وهناك طفق الضابط صاحب النوبة يحقق معه . سأله : ما اسمك ؟ .. التقط اسم الضابط حسن فؤاد أحمد وحوله إلى : حسين فاروق محمود . سأله : ما سنك ؟ .. نظر إلى الضابط وقدر سنه ثم نطق : ثلاثون سنة . ولم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره . واتهمه الضابط بالشروع في سرقة المحل ، فأنكر الشاب وقال : لقد خاب فعلي يا سيدي . كنت قد انتهيت من الاستيلاء على الذهب . هزأ به الضابط وقال مستغرباً : ما هي شهادتك ؟ .. قال : أنا لا أقرأ ولا أكتب .

سأله : أين بطاقتك الشخصية ؟ .. أجاب : لا أذكر أنني استخرجت بطاقة .

نطق القاضي بالحكم ثلاث سنوات على حسين فاروق محمود . واقتيد إلى السجن . وكان أول سجين يشعر بالارتياح . ويهنأ في السجن العادي . هرب من السجن السياسي حيث العذاب والألم والمرض والهوان إلى السجن العادي حيث العمل غير الشاق . أختبأ من الجلادين في تلك الزنزانة الهادئة .

دخل الزنزانة التي أقيم فيها . ولم ينطق . ولم يبح بسره لأحد غيري . وحفظت السر . كان يتمنى أن يمضي الزمن فتتغير الأوضاع في الخارج . وتنتهي شهوة الحكم في التنكيل بإخوانه . وحينما يخرج سوف يباشر حياته باسمه القديم وبطاقته التليدة وشهادته الجامعية الرسمية ولا يتعرف أحد على سابقته . فماذا إذاً عن البصمة ؟ .. أقنع نفسه أنه يستدل على الاسم أولا ثم يأتي دور البصمة . لكن لا يحدث العكس بأن يستدل على البصمة ليعرفوا الاسم .

وسمعنا عن ضبط بعض أفراد جماعته . وتصور أن شقة والده داهمها رجال الشرطة . وأنهم قلبوا الأثاث رأساً على عقب . وبحثوا عنه حتى في " السندرة " لكنهم لم يجدوه بطبيعة الحال . وطاردوه عند إخوانه . دخلوا بيت كل صديق وفتشوا عنه تفتيشاً دقيقاً . ولعلهم تركوا الأصدقاء أو لعلهم اقتادوا بعضهم إلى مديريات الأمن .

نقل إلي تصوره فسألته : ماذا فعلت ؟ ..
قال : لم أفعل شيئا .
سألته : إذاً مم تخاف ؟ ..
قال : أخاف الوصمة . قلت : وهذه الوصمة التي تحملها .. إنك لص .
قال : هذه وصمة زائلة . أما وصمتي الأخرى فستكون باقية تطاردني العمر كله .
لم يكن العهد قد تغير بعد . وعرف أنه سوف يسرح لسلوكه الطيب بعد انقضاء ثلاث أرباع المدة ، فأفتعل شجارا مع زميل ، ودفع به إلى زنزانة انفرادية . وبعد انقضاء فترة الحبس عرف أن سلوكه المشين جعله يفقد مقومات العفو . وشعر مرة أخرى بالراحة فهو لن يخرج فيعرف بوجوده الناس وبالتالي تنبش وراءه الشرطة فيعود - هذه المرة - إلى سجن سياسي حيث العذاب المنكر والآلام المبرحة والجلد بسياط غمست في الزيت بالإضافة إلى الهوان المقيت .
لكن لما انقضت مدته كافأته السماء بانقضاء العهد الذي تمنى زواله ، لذلك خرج مطمئنا أن أحداً لن يطارده . وعاد يواصل حياته العادية باسمه القديم وتباعد عن إخوانه القدامى وسأله أهله : أين كنت ؟ .. قال : كنت أبحث عن عيش في بلد بعيد . وسأل أمه وهو يهمس في أذنها : ألم تداهم الشرطة بيتنا . قالت وهي تبادله الهمس : لا .. لم يحدث .

أسقط في يده . وشعر أنه أدخل نفسه السجن وأمضى وقتاً ضائعاً . إنه أهدر جزءاً من حياته بلا سبب غير الظنون . طأطأ رأسه وشعر بالخيبة .

من بعيد كان يتنصت أحد المساجين لرواية الزعبلاوي فهزأ به وقال : وكيف عرفت يا شاطر الذي حدث خارج السجن هل كنت معه ؟ ..

نظر إليه الزعبلاوي نظرة ساخرة وقال :

كان معنا في السجن لص آخر . حينما خرج صادف المدعو حسين فاروق محمود . وأخذه في حضنه وطفق يقبله وهو يتباعد . وطلب منه اللقاء فرفض . حكى له القصة كاملة . ثم استطرد : أنا لا أريد أن أقيم علاقات مع أحد . وهكذا عرف ذلك اللص القصة . وضبط في سرقة جديدة ودخل السجن . وفي أحد العنابر روى القصة السجين التقيت به في فناء السجن وحكاها لي . هز السجين رأسه وقال : أهكذا !! ..

دق الرقيب الباب الحديدي دقاً قوياً . وقال بصوت فولاذي ساقط على حديد بارد : ناموا .

وما أسرع ما كف الزعبلاوي عن الكلام ونام .

السجين الشيوعي

اضطجع الزعبلاوي على فراشه في الزنزانة ، ونحن نحيط به متلهفين إلى سماع قصة جديدة . وتنفس الزعبلاوي ببطء . وراح يدخن سيجارته بلذة . ونحن نحاول أن نسكت حتى يتكلم .وكتمنا أنفاسنا كأن همهمات أنفاسنا تحول دون حديثه . فجعلنا نتنفس دون صوت . ثم قال الزعبلاوي وقد نزل علينا سهم الصمت :

استقبلنا صاحبنا الشيوعي في أوائل الستينات . لا تتصوروا أنه كان فقيراً يرتدي ثياباً رثة . وأن وجهه يمتلئ بالصفرة . أبداً. كان وسيماً حتى في حلة السجن . وجهه نضر مفعم بالحمرة عائلته لها أراض واسعة . وعقارات تدر دخلاً كبيراً . لقد ترك قبل أن يدخل السجن في الأمانات بذلة تساوي ألف جنيه . وغير ذلك من أشياء قيمة . كان مبدؤه تمتع ودع غيرك يتمتع . حينما ملت عليه وسألته : ما هي تهمتك ؟ .. أجاب : سرقة . استغربت فعلاً .

بدأت استدرجه في رواية قصة حياته . وبعد لأي حكى . كان قد تخرج من الجامعة . وقد اعتنق ذلك المذهب الذي صنعه رجل يهودي اسمه ماركوس . يبدو أن اليهود وراء كل ما يؤدي إلى اضطراب العالم .

أعترض أحد الزملاء الذين لا تعجبهم حكايات الزعبلاوي من بعيد (وهو محام أُدين في قضية نصب) . وقال : اسمه ماركس يا سيدنا .

لم يعره الزعبلاوي اهتماماً واستمر يروي :

المهم أن صاحبنا أعتنق المذهب وقرر بينه وبين نفسه أن ينفذه بيده . قرر أن يعيد توزيع الثروة على الناس بالتساوي . تحول الفتي من بريء إلى لص . طفق يسرق من الأغنياء ويعطي الفقراء . أتذكرون قصة اللص الظريف أرسين لوبين . صار مثله . يستولي على مجوهرات أو نقود أو حلي الأغنياء أو الثريات . ويمنح المعوزين والمساكين وأبناء السبيل .

أول من قام بسرقته .. أبوه . فتح خزانته ذات الأرقام - وكان يعرف أرقام فتحها وأبوه لا يعرف أنه يعرف - وأختلس منها مائة ألف جنيه . أبلغ والده الشرطة وحققت لكنها لم تصل إلى الفاعل . اُتهمت خادماً وطباخاً غير أن الاتهام لم يكن هناك ما يسانده . وبرأت النيابة العامة ساحتهما . ولم يتصور أحد أن الابن هو السارق .

بعد حفظ التحقيق ، أخرج الفتي الأموال من مخبئها ، وصار يتعرف على الفقراء الذين يستحقونها . ولم يكن يظن أنه سيجد صعوبة في هذا التعرف . ووجد أنه بالفعل من الصعب أن نفرق بين المسكين وغير المسكين ، كأن الأمر يحتاج إلى مبضع جراح لإزالة الشحم الدسم من الجلد الحي حتى يتبين الفقير من الغني .

فهناك هؤلاء الذين يتعففون عن السؤال ويستحقون المال وهؤلاء الذين يطاردون المتصدق كما لو كان فريسة يمتصون دمها . يبدون أذلة وهم في الحقيقة كواسر جوارح مصاصو دماء . لكنه تمكن فعلاً أن يفرق بين الوجوه الكالحة والوجوه النضرة . بين الذين يستحقون الإحسان وهؤلاء الذين لا يستأهلونه .

ووقعت السرقة الثانية على امرأة عم الفتى . كانت امرأة تكتنز المجوهرات والحلي . وتكاد تجمد ثروتها في اللآلئ والذهب والماس . ووجد أن صيده القادم لا بد أن تكون تلك المرأة . وكان من السهل أن يدخل دارها ومن السهل أن يتعرف على موضع صندوق المجوهرات ، ولكن لم يستول على كل النفائس التي لديها . ترك لها البعض منها ، بيد أنه استولي على لؤلؤة تعتز بها . كانت هدية لها من أمها . اكتشفت السرقة ، وهي تتحسس الصندوق ، وتتلمس الطريق إلى اللؤلؤة . والمتعة تهبط عليها من السماء أو تهطل رذاذاً لذيذاً ينعشها . بوغتت بضياع ثلاث أرباع الثروة . لم تتمكن الشرطة من اكتشاف اللص . ولم تستطع أن تتهم أحداً من الخدم ، لأنهم كانوا قدامى في الدار . وكانت سنونهم متقدمة تدنو من الخمسين ولا يُعتقد أن شيخاً هرماً يمكن أن يسرق في نهاية أيامه أو حتى يفكر في السرقة .

وجد للفتى صعوبة في تصريف المجوهرات والحلي والذهب ، لدرجة أنه قام ببيع بعضه في الإسكندرية . والبعض الآخر في المنصورة . والبعض الثالث في المنيا . وامتنع عن بيع اللؤلؤة

التي كانت تبكي عليها زوج عمه بحرقة خشية أن يُفتضح أمره .وقام بالبحث في هذه المناطق عن الفقراء .. حتى يروي عطشهم إلى المادة . وشكروه واحتضنوه بعنف تعبيراً عن امتنانهم .

غير أنه لم يواصل سرقة الأهل والأقارب الأثرياء ، إنما بدأ التعرف على الأغنياء في النوادي ، ثم التخطيط للاستيلاء على أموالهم . وكان يضع الخطة ويقوم بتنفيذها بحذافيرها وبالطريقة أو الأسلوب المحدد سلفاً . لكن كثيراً ما يسقط الشاطر ، لقد قُبض عليه وهو يبيع جوهرة اشتراها صاحبها من بائع مجوهرات كان قد باعها لذلك الرجل المسروق . وتم القبض عليه وتعلل بأنه يشم الهروين ويحتاج إلى مال فاضطر لسرقة صديقه الثري .

وُضعت الأصفاد في يديه ، ومثل أمام النيابة العامة ، وناقشه القاضي ، وصدر ضده الحكم بالحبس ستة أشهر . وكان عقله يعمل ولا يتوقف ، ولا يفكر إلا في شيء واحد هو أن يستمر على الدرب . يستولي على أموال أصحاب المال الطائل ويوزعها على المطحونين . نصحته نصيحة أب لابنه أن يتراجع ، فليس هو نبي الهدى ، إنما هو بشر . وليس في استطاعته وحده أن يعيد توزيع الثروات كما كان يزعم . كان يهز رأسه مصدقاً ، لكنه يكتم بين ضلوعه الهدف القديم . يحن إلى تنفيذه كما لو كان يهفو إلى حبيبته يريد أن يراها .

حينما تتسم نسائم الحرية ، عاد من جديد لسيرته الأولى . تعرف بعد عدة سرقات على عضو بارز في أحد النوادي . كان إذا تأمله يعتقد أنه رآه من قبل ، لكن الذاكرة كانت تخونه . كان الضباب يحيط بصورة الماضي النائمة في الذاكرة . ولم يتمكن من إيقاظها لكنه مضى في طريقه يريد الاستيلاء على الكثير من لدن ذلك الرجل . لما وضع الخطة وبدأ تنفيذها . رأى ذلك الشحاذ الذي كان يعوله ويجلس عند ناد من النوادي ويهبه في كل مرة عشر جنيهات فيدعو له بصوت متحشرج متكسر . رآه يخرج من فيللا الوجيه صديقه ، وهو يدق بعصاه على الأرض . وينقل قدمه الوحيدة من مكان إلى آخر كأنه يخب . لم يسترعه ذلك ، واستتر بالسور . ولما خرج المتسول بدأ في تنفيذ الخطة . لكن الخدم كانوا أمناء فهاجموه في عقر دار الوجيه . وهو يضع الأموال في جيبه . حضر رجال الشرطة . وبدأوا التحقيق معه .

تصادف أن عاد الوجيه مبكراً والشرطة لا تزال تحقق . ورأى صديقه قد حاول أن يستولي على أمواله . لم يحرك ساكناً . لم يشفع له . لم يفعل ما تستوجبه الصداقة . راح الفتي يتأمله بإمعان حتى تأكد أنه المتسول الذي استفاد كثيراً من إحسانه . يمتهن التسول في أيام ويعيش وجيها في أيام أخرى . شعر بخيبة أمل كبيرة . يبدو أنه كان يستولي على أموال الأغنياء ويعيد توزيعها على الأثرياء المتخفين في ملابس البؤس .. دون أن يدري . كم

فرداً ممن حصلوا على توزيعاته كـانوا ينتمـون إلـى الطبقـة العليـا وهم يظهرون بمظهر الطبقة الدنيا ؟ ؟ ! ..

دق عبد الجبار الحارس الليلي الباب الحديدي بعنـف ، حتى شعر الجميع أن قنبلة انفجرت في العنبر . قال : ناموا

وما أسرع ما كف الزعبلاوي عن الكلام ، دس وسادته تحت رأسه ونام .

آخر صيحات النصب

لما دلفت الساعة الثامنة بعد صلاة العشاء إلى الوجود . أدركنا أن الزعبلاوي سيبدأ الرواية فتجمعنا حواليه ، وهو يقول : ساروي لكم آخر صيحة من صيحات النصب في وقتها .

لما خرج باتع من السجن ، أدرك أنه ينغمس في شلالات النور التي تعيده إلى الحياة ، وأنه ترك وراءه ثعابين الظلام التي تدفع إلى الموت السريع . فرح لأنه سيتحول من موظف معدم ، تئن جيوبه أنات متواصلة ، إلى ثري ملئ ، تصيح جيوبه وتقهقه بصوت عال . حينما يأخذ قسطه من الراحة سوف يتوجه إلى المصرف ، لصرف دفعة تحت الحساب من رصيده البالغ خمسين ألف جنيه .

تذكر يوم جاء بسيوني نائب المدير ، همس له أن باب السعد أنفتح أمامه . وأن عليه أن يؤدي مهمة ينوء منها الأبطال ، ولكنه قادر عليها . تحسس عضلاته وقال : نريد أن تستغل هذه الفولاذيات في أمر هام .

بحث عن سيارة أجرة تقله إلى منزله المدفوع إيجاره زهاء ستة شهور . وشعر أن جسده لم يتضعضع بعد من أثر السجن . لا يزال يحتفظ بقامته السامقة لم تتحن . وظلت عضلاته قوية بارزة لم تتكمش أو تترهل . كان فولاذاً وما يزال قبل وبعد

السجن . لكنه كان قبل الدخول إلى الزنزانة طيب القلب لا يستغل قوته على الإطلاق . لم يحاول في يوم من الأيام أن يعتدي على إنسان . كان بينه وبين العدوان مسافات . بل كان يمقت إرهاب الناس بالعضلات . وقد استهان به البعض ولكنه لم يهتم بهذه الاستهانة . ما دامت كرامته وعزة نفسه وجبروته يحتفظ بها .
إلى أن همس له بسيوني أن المدير يريد منه أن يضعضع قوة أحد المنافسين في شركة يعرفها تحول دون أن يتوجه إلى مزاد علني . مقابل أن يدفع له خمسين ألف جنيه . وقال له : حينما يقبض عليّ ويحكم عليّ بشهور في السجن . سوف تنفعني هذه الخمسون وتنشل سمعتي من وهدة العار . قال وهو لا يزال يهمس : لا تخف . وظيفتك محفوظة حتى تخرج من السجن . سيتوجه المدير العام معك إلى المصرف وسيودع لك المبلغ في حساب يفتتحه لك الآن لو أحببت . وسيضع لك المبلغ في حساب جار وبذلك تضمن أن المبلغ قد دفع وما عليك إلا تنفيذ المهمة . نحن لا نريد منك قتله . حاشا لله . إنما نريد أن تقعده عن العمل فلا يفكر أن يذهب إلى مزاد الفاكهة وبذلك تفلت منه الصفقة وتؤول إلينا .

اختمرت الفكرة في ذهن باتع . وأشار إلى نائب المدير العام أنه وافق . وما كاد يلمح حتى وجد المدير العام وصاحب الشركة يصافحه ، ويأخذه من يده إلى المصرف ، ويودع المبلغ باسمه . قال للمصرفي : أريد أنا والأستاذ باتع أن نفتح حساباً جارياً لأننا

على وشك تأسيس شركة تضامنية ، وغمز إلى بائع ، فعرف بـائع أنـه يسـتغفل المصرفـي ، وتـم تأسـيس الحسـاب ، ووقـع بـائع ، وانشغل بتفكـره عـن المصرفـي . كيـف سينفذ الجريمـة ؟ .. لأول مرة يستغل فتوته في الشر .

اندفع في اليوم التالي يترصد مدير الشركة المنافسـة وصاحبهـا في نفس الوقت .. وكال له اللكمات والركلات أمام باب شـركته . لم يستطع أن يدخل إليه لأنه لو دخل لن يتمكن مـن الهـرب ، أمـا في الشارع فالطريق مفتوح ، والهواء طلق . وما أسـرع قدميـه ! .. لكنـه لـم يتوقـع والرجـل حـط علـى الأرض وعينـاه وارمتـان وذراعه مخلوع ، وقدمه تترنح أن هناك من سـوف يعرقـل قدميـه عن القفز والانطلاق . ووجد نفسـه يسـقط ويتجمـع حولـه موظفـو الشركة . ويُقتاد إلى قسم الشرطة للتحقيق معه . ويتم التحقيق معه وهو ملتزم الصمت . فلو تكلم فسوف يفشي سر رئيسه . وقد لا يجد على أقل تقديـر الوظيفـة تنتظـره بعـد خروجـه مـن السـجن . والاتفاق تم ومتوقـع لـه السـجن إذا تـم ضبطـه . وعولـج صـاحب الشركة المنافسة أكـثر مـن واحـد وعشـرين يومـاً .وحكـم القـاضي بسجن بائع ذي السر غير البائع جزاء ما سـببه مـن أضـرار لذلـك الرجـل البـريء . وهـا هـو يقضـي العقوبـة كاملـة وينطلـق لحيـاة الترف . كانت الأيام تمضي في الخارج سـراعاً فمـا يكـاد يظهـر يوم السبت حتى يجد نفسه يرتفع ويرتفـع فجـأة ثـم يقـع ليجـد أنـه أمام يوم الخميس . أما في الداخل فهي تمضي كأنما يفجر الصخر

ببطء .وما يكاد يتعمق حتى يصاب بالملل والكآبة ولا يـأتي أبداً يوم الخميس إلا بمشقة .

لم يلحق المصرف في يوم الخروج إلى النور .. إلى الشمس .. إلى الهواء المغسول بنفحات الربيع ، لذلك انتظر إلى اليوم التالي . وتوجه إلى المصرف . ومعه تلك البطاقة الدالة على حسابه الجاري .. تلك التي أعطاه اياها المصرفي . وطلب ألف جنيه من الحساب . قال له الصراف : الرصيد صفر . لقد تم سحب كل ما في الحساب الجاري وأقفل . سأل باستغراب : من ذلك الذي سحبه . قال : شريكك في الحساب . قال الصراف : ألم تفتح الحساب أنت وشريك لك ؟ ..

وعرف بـائع الملعوب . آخر صيحات النصب . جعله يقعد الرجل مقابل خمسين ألف جنيه . وحينما توارى خلف جدران السجن . سحب كل المبلغ وقفل الحساب الجاري . لقد كان حساباً مشتركاً وقع دون أن يدري أن له شريكاً فيه . أشل المبلغ تفكيره وسحر عقله وجعله هائماً شارداً لا يدري أن صاحب الشركة يحفر حفرة ليقذف به فيها . ظن أنه ضامن له ..أو أنه لا يجوز السحب إلا بأذنه .. يا للسذاجة ! .. كل هذا المبلغ ويحتاج إلى ضامن .. ولم يضمنه ؟ ! ..

لم يبق إلا أن يتسلم وظيفته . أخبره مدير شئون العاملين أنه تغيب عن العمل أكثر من عشرة أيام متصلة . وتم فسخ عقده طبقاً للمادة ٧٦ من قانون العمل . ولما خرج من مكتبه ، شعر أنه

يتحول إلى ثور هائج . اقتحم باب صاحب الشركة وحاولت السكرتيرة أن تمنعه ، فدفعها وكاد يخلع الباب من مكانه . وقفز أمام المدير . وشده من مقعده . حاول الرجل التفاهم معه لكن الأمر كان قد نفذ .

في هذه المرة دخل السجن ثلاثة أعوام بسبب عاهة مستديمة ألمت بصاحب الشركة ومديرها نتيجة المشاجرة بين عملاق وعصفور .

دق عبد الجبار الباب الحديدي بيده الفولاذية وصرخ قائلا: ناموا .

فما كاد الزعبلاوي يسمع الأوامر ويعي الكلام حتى نام .

الخوف من الفضيلة

قبل أن يبدأ الزعبلاوي حكايته الجديدة في الليلة التالية ، سألناه : ألا توجد لديك نوادر عن المجرمات . استغرب من توارد الخواطر وقال : في هذه الليلة كنت سأقص عليكم قصة عن بعض النسوة كن خائفات من الفضيلة .

القصة تبدأ برجل كان لديه بيت به عدد من الشقق ، يسكن فيها قريبات له . ولم يعقب الرجل ولداً أو بنتا . وكان أقرباؤه نسوة يملن إلى حياة المجون فيما عدا شقة واحدة كانت تسكنها امرأة فضلى وبناتها العفيفات . وحينما مات وجدن أنه أوصى للقريبات وأولادهن من بعدهن بكل شقة يسكننها . وقد فرحت النسوة لهذه الوصية وطفقن يمارسن الحياة المنحرفة وينظرن شذراً إلى المرأة الفضلى وبناتها . ورأين أن تلك المرأة وبناتها يمثلن خطراً عليهن . فالبنات مثل أمهن تمسكن بالفضيلة . واصبح الخوف من الفضيلة هو محرك قلق وغيظ وغضب في قلوب الفاسدات . اجتمعن لدى واحدة منهن وقررن مهاجمة المرأة الفاضلة وبناتها وتسليط بعض الرجال عليهن لاغتصابهن . واستأجرن عددا من الرجال ليرتكبوا تلك الموبقة .

سأل أحد الفتوات المحرضة :

– وما السبب في هتك عرض البنات ؟ ..

قالت المرأة الفاجرة : إني أخاف على بناتي من فضيلتهن . لو استمررن على عفتهن فقد يقلدنهن .. وتبور تجارتي بعد ذلك .

وما كانت هذه المرأة لتحترف سوء السمعة ، إلا لأن صاحب البيت المتوفى كان ضالعا معها في هذا الطريق . كان يقيم الحفلات والسهرات الماجنة على سطح المنزل حيث هناك حجرات كثيرة . وكان يشجع النسوة على الفساد . ولم يكن يتعرض للمرأة العفيفة لأنه كان يخشاها . بل كان يتحاشاها . وكانت المرأة العفيفة تعرف مجونه ، لكنها لم تتدخل .. كانت تخشى أن تفقد شقتها إذا ما غضب عليها الرجل .. واكتفت أن تدعو له بالهداية .. وكان ذلك في رأيها أضعف الإيمان . وقد ظلت متمسكة بدينها وعلمت بناتها السبع العفة والسير على الطريق المستقيم وأداء الصلوات في مواعيدها . ولولا أن كان لها معاش من زوجها المتوفى وبعض من إيراد من عقارات خارج المدينة لكانت قد انحرفت .

تربص الفتوات بالفتيات . واستطاعوا أن يعتقلوا ثلاثاً منهن . وأفلتت منهم أربع . أسرعن إلى أمهن يبلغنها بالكارثة . فما كان منها إلا أن أبلغت رجال الشرطة . لكن الرجال لم يتمكنوا من معرفة أين أخفى الفتوات الفتيات . وكانوا وكن على بعد خطوات من أمهن .. في سطح العمارة في هذه الحجرات التي هجرت بموت صاحبها واستولت النسوة الفاجرات عليها ليمارسن فجورهن فيها . وقد قام الفتوات باغتصاب الفتيات وتبادلوا

عليهن . وكانوا قد كمموا أفواهن وربطوا أيديهن حتى لا يصرخن ويقدرن على المقاومة . وكانوا يعاشرون الفتيات وهم ملثمون حتى لا يستطعن فيما بعد أن يتعرفن عليهم حينما يطلقون سراحهن . وتركوا بعد ذلك الفتيات مكممات ملثمات موثقات أمام شقة أمهن . اثنتان منهن قد حملتا والأخرى لم يتمكنوا منها . وكانت المرأة سيئة السمعة تقوم بتوصيل الغذاء يوميا في غفلة من أعين سكان العمارة إلى الفتوات والفتيات حتى تأكدت أن الفتاتين قد حملتا ولما لم تتمكن من الثالثة قررت تركهن أمام شقة غريمتها الفضلى .

كانت الشرطة قد فتشت عنهن حيناً من الدهر ثم كفت عن ذلك . وحينما وجدتهن أمهن ذات صباح راقدات على الأرض أمام شقتها . صرخت . وفكت قيودهن وأدخلتهن وانطلقن يبكين مما ألم بهن . وانطلقت المرأة تبلغ الشرطة ، لكنها عجزت عن العثور على الفتوات الذين ثلموا شرف الفتيات . ولم تدرك الفتيات أين كن ومن هم هؤلاء الأشرار الذين أفسدوا حياتهن . وعند طبيب خاص حاولت المرأة أن تجهض الفتاتين وقد صرحت للطبيب بما حدث وطلبت منه الرأفة بابنتيها ، غير أن الطبيب تأسف وقال إن الوقت قد فات لأن في إجهاض البنتين هلاكاً لهما .

انتظرت الأم ولادة البنتين . وما كادت تتسلم الطفلين حتى وضعتهما في حجرة وأغلقت عليهما . صرخا كثيراً لكنها لم تستجب لهما . وماتا من الجوع والعطش والذبول .

أبلغت المرأة سيئة السمعة فيها الشرطة مدعية أنها قتلت الطفلين . وبالتحقيق أثبت الطبيب الشرعي أن الطفلين ماتا جوعاً وعطشاً . وقالت المرأة العفيفة إنهما كانا مريضين بالحمى ورفضا الزاد وأي طعام أو شراب وماتا رغما عن إشرافها الكامل عليهما . لكن النيابة وجهت إليها تهمة قتل الطفلين عمداً ومع سبق الإصرار والترصد وأعفت ابنتيها من التهمة بحجة أن المرأة منعتهما من الإشراف على الطفلين .

كانت المرأة سيئة السمعة تريد أن تزيح المرأة العفيفة من طريقها . ويصبح في مقدورها قيادة البنات السبع العفيفات مثل أمهن . وبينما كانت المرأة العفيفة تقاسي مرارة السجن . كانت البنات السبع يواجهن المرأة سيئة السمعة ويقاومن أغراءاتها وألاعيبها التي لا تنتهي . وصرن يمشين مدججات بالسلاح حتى يدافعن عن أنفسهن ضد الفتوات .

يدق المنيلاوي باب السجن معلناً أن النوم قد حل .

وما أسرع ما يأخذ النوم الزعبلاوي إلى بئره ، ويكف عن الكلام .

الشيطان يلعب بك

جلس الزعبلاوي ، ونحن نتحلق حوله . وراح يروي قصة جديدة فأخذ يقول :

هذه قصة رجل دخل السجن ، ونحن نيام . ولما طلع الصبح وجدناه بيننا . وبدا صموتاً راغباً عن الكلام . لم يصرح بجريمته رغم إلحاح المساجين عليه . تمكنت بعد لأي من استدراجه إلى الكلام . فروى لي حكايته بذلة ومسكنة . واتضح فعلاً أنه لو صرح بجريمته لطفق المجرمون يضربونه حتى الموت . في هذه الحالة لا أهمية لما يقال عن حرية العقيدة إنما المهم أن يتم القضاء على ذلك الرجل حتى لا يؤثر في الناس . فقد كان يدعي النبوة . وقبض عليه وأودع السجن .

فيما مضى كان ورعاً تقياً . يؤدي الصلوات في أوقاتها . ويصوم شهر رمضان ويومي الاثنين والخميس . ويحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب . فجأة سمع صوتاً استنكره . وتأكد أن السماء تخاطبه وتوحي إليه . جاءه الصوت والفجر يكاد ينبلج . وهو نائم في شرفة منزله والنسائم ممتعة . سمع صوتاً يهمس في نفسه :

" أنظر إليّ لا تنظر إليه أو إليها . بالبحث عني تجدني أنا القريب . ثم أنا في كل موجوداتي وأشيائي منبث . تأمل الكون حولك تجدني أنا المنبث . جاور الأشياء وتمعن ستجدني في كل

فج . حاور المخلوقات عيناً وسمعاً وسوف تدرك أنني المداوي والجارح . " .

وهكذا صار الصوت يبدأ الجملة الأولى بالألف وينهيها بالألف . والجملة التالية بالباء ونهايتها بالباء . والأوامر والنواهي والتعريفات تتواصل . حاول أن يتأكد أنه لا يصوغ العبارات وأنه يؤلفها فلم يتأكد . حتى بلغ به الكلام " قم فبشر الناس بنبي فقد برح بهم الشوق " . وعرف أن الصوت ينبئه أنه نبي هذا العالم الجديد . وحتى لا ينسى ما وصل إليه من إرشادات راح يكتبها . واستغرب أنه يذكرها ولا ينساها .

وكان له صديق عرض عليه ما جاءه عند الفجر . وما يأتيه كل يوم من عبارات . تردد الصديق بالإيمان به في البداية . وجاء في اليوم التالي يطلب نسخة مما نزل عليه ، فأدرك وهو يطلب ما نزل عليه أنه آمن به . وهمس لصديقة له بما يخاطبه الصوت من كلمات عند الفجر ، فراحت تناقشه : هل الصوت تسمعه من خارجك أم تسمعه من جوفك ؟ .. راح يتمعن في سؤالها . وقرر في خاتمة الحديث أنه يسمعه من جوفه أكثر من الخارج ! .. هنا قالت المرأة : هذا شيطان يلعب بك ! .. غير أن المتنبي لم يهتم بكلامها . وراح يكتب ما يوحي إليه . أو ما يتصور ما يوحي إليه . وعرض رسالته – كما قال لي – على بعض الناس . ولا يعرف السبب في التفاف بعض الناس حوله . أتكون شخصيته قوية ؟ .. عيناه الواسعتان ذاتا البؤبؤين السوادوين تخدر النفوس

أم طوله السامق يجذبهم إليه . أم انطلاق كلماتــه دون لجلجـة أو تردد يدفعهم نحوه . بل لعلها الثقة الزائدة في النفس وفي الله هـي التي قربت الناس منه . لدرجـة أن سماهم القريبين على اعتبار انهم قريبون من الله أولاً وقريبون منه ثانية .

أبلغت الصديقة عن ذلك المدعي للنبوة . وقبضت عليه الشرطة وحوكم وصدر ضده حكم بالسجن . وطفـقَ أصحـاب السـجن يتقصون عن جريمة ذلك الساكت المتباعد حتى عرف أحدهـم أنـه مدعي للنبوة ، فأخذ يسخر منه سخرية مريرة ، وانضـم إليـه بقيـة الزملاء في الاستهزاء به . وبكى وتساءل : ما ذنبي أنـا ؟ .. هل أنا الذي أخترع ذلك الصوت الذي يأتي عند الفجر ؟ .. وسأله أحد المساجين : هل لا يزال يوحي إليك ؟ .. قال بجرأة : نعم إنـه لا يزال يأتيني عند الفجر ! .. يزلزلنـي فـانهض مـن النـوم مفزوعـاً واستمع إليه يلقي عليّ بالكلمات . ويسأله آخر : ولم يعرضك لهذا الهـوان ألا تطلـب منـه أن ينقـذك ؟ .. لـم لا ينقـذك مـن هـذه الورطـة ؟ .. فـلا يجيب . يلتزم الصمت . ويفسر آخر وضـع السجين مدعي النبوة قائلاً : أنت مهووس .. ولست نبياً يا هذا .

لما اشتدت عليه السـخرية ، طفـق يبكـي . كـان مقتنعـاً بصـدق كلامه ، ولا يتشكك في أن الشيطان لبسه وأنه يلعب بـه . . ولمـا ضاق به الحال ، تهور وأخذ يضـرب رأسـه فـي الحـائط ، وشـدد عليه المساجين الاستهزاء وكفـوا فجـأة عـن ذلـك لمـا وجـدوا الـدم يسيل من رأسه فقد شجها وهـو يضربهـا بالحـائط . ونقلتـه إدارة

السجن إلى المستشفي ، ثم تم نقله إلى مستشفى للأمراض العقلية ، وقيل لنا إنه أصبح مستكناً هادئاً متقوقعاً بعد الجلسات الكهربائية والحقن المهدئة للأعصاب ، فضلاً عن أن ضربات شلالات السخرية توقفت . وفي المستشفى كل نزيل يعيش في عالم متباعد عن عالم الآخر .

سمعنا نفخة عبد الجبار في الخارج ، وهو يقول بعدها :

- ناموا .

وكان أول النائمين الزعبلاوي . يغوص سريعاً في بحار النوم في الأعماق ، ويكف عن الرواية .

نصيب الأسد

****

لما كانت الساعة السابعة بعد المغرب قد حلت . اجتمعنا حول الزعبلاوي نسمع منه بقية القصص . الرجل يكتنز ثروة من الحكايات تشد لها الأذهان . وتقتل الوقت والملل الطاحنين .

أصغينا وهو يقول :

هم مجموعة من اللصوص . تمكن أبو نقاية رئيسهم من احتجاز أموال منهوبة له . وخرج من الوكر ومعه مساعده عطوة ليفتتح له حساباً جارياً باسمه في المصرف . بينما باقي أفراد العصابة يتهامسون ويتجاذبون أطراف الحديث عن فوز أبي نقاية بنصيب الأسد وسد حلوقهم بالفتات . ولم يجرؤ واحد منهم على رفع عقيرته محتجاً . لكز المجاور المعارض ليحد من صوته . كان قصده ألا ينتقل الحديث عبر الحوائط ويصل إلى الرجل ، فيشتت شملهم ، فهو عنيف قادر وقاس .

مضى الاثنان إلى المصرف ودخلا في ثبات تام . وأبرز أبو نقاية بطاقته وطلب أن يفتح حساباً جارياً باسمه ، وأسرع الصراف إلى العمل حينما عرف أن المبلغ يزيد على ثلاثمائة ألف جنيه . وكان عطوة يتشمم النقود عن بعد وهي موضوعة في مظروف ورقي على رف المصرف الرخامي . ومشت أنفه معها والصراف يحتجزها في صندوقه . ودفع زعيم العصابة بالحقيبة

الصغيرة ليمسكها عطوة ، ويسلم المظروف للصراف لعد النقود به وقد قام بتقليد توقيعه على ورقة خارجية عدة مرات حتى أتقنه وحتى لا يخطئ في كتابته عند استرداد بعض النقود ثم مهر بتوقيعه على الأوراق وسلمها للمصرفي . ورأى عطوة أن الجهل بمبادئ القراءة والكتابة يتطلب من صاحبه التأني والإتقان والتدريب الآن يجعل التوقيع مستقبلا واضحاً .

استمر عطوة يحمل الحقيبة لزعيمه تلك التي يقلد بها العاملين في الخارج ، حيث يضعون فيها جنيهات قليلة وجواز السفر وبعض الأوراق الرسمية المطلوبة منهم .

وما كاد الرجلان يخرجان من المصرف ، وعطوة يطوي ورقة التوقيع في الحقيبة الصغيرة ، حتى انطلقت الرصاصات من كل جانب . وانبطح عطوة أرضا يتفادى السيل المنهمر . بينما تلقى أبو نقاية الرصاصات في قلبه ، واندفع الدم هارباً من الجسد كأنما يبحث عن منفذ له وما كاد يجده حتى اندفع . وبلل القميص الحريري . وسبح في الأرض باحثاً عن مجرى . ولوّن البلاط المقابل لمدخل المصرف باللون الأحمر . وتجلط الدم على الأرض . ونسوة كن قريبات من الرجل القتيل صرخن . وفزع الأطفال الملاصقون لهن فزعاً ارتسم بقوة على وجوههم كأنما تجمدت لأجل غير مسمى . وهم ينجذبون إلى أمهاتهم . وبادر بعض الرجال بانتشال الرجل من على الأرض . غير أن الروح كانت قد أسلمت قواها إلى بارئها .

توارى عطوة عن الناس حتى لا يربطوا بينه وبين القتيل . ودس الحقيبة الصغيرة تحت إبطه . وانصرف إلى شارع جانبي . وطفق يخب كأنه جواد يتمرن على السباق في ساعات ليس فيها منافسة . ولما آوى إلى شقته أخذ يراجع أوراق الحقيبة الصغيرة . البطاقة الشخصية تؤكد أن لا عائلة له . ليس له ورثة ظاهرون . وبعض النقود . تنفع في الأيام السوداء . والورقة التي قلد فيها الفقيد إمضاءه حتى أتقنه وإيصال المصرف باستلام الكنز . ولا شيء آخر في الحقيبة الصغيرة .

دس يده في جيبه كأنما يسرق سيجارة من علبة سجائره . وتمدد على الكنبة الأسيوطي . وطفق يدخن وينفث دخانه في الهواء . ينبه نفسه أن السيجارة خطر على صحته ويرسم ابتسامة ساخرة غير عابئ بالنصيحة هكذا الإنسان قبل الخطر لا يعبأ ، وعند الخطر يمتشق الحرص ويتوب ويستغفر . وينفث دخاناً في الهواء ويفكر .. إذاً قتلوه ، فهل يعود إليهم ؟ .. ولم يعود ومعه كنز مدفون في المصرف . ليس له مستحق الآن إلا من يكشف عن نفسه على أنه صاحبه . إن الملائم الآن هو أن يتقمص شخصية الفقيد . إن ما فعله المصرفي هو كتابة أرقام البطاقة الشخصية وليس لديه صورة منها .سوف يتقدم إلى المصرف من حين لآخر ويسترد جزءاً من الوديعة الغالية كل مرة . لا يريد أن يلجأ إلى التزوير في كل لحظة من لحظات الحظ التعس . قد

يقبض عليه ويودع في زنزانـة كئيبـة ، تلـك التـي لـم يدخلهـا مـن قبل . إذاً فليسترد النقود دفعة واحدة . كيف ؟ ..

تمكن أن يعرف فـي مسـاء يـوم أن الجثـة تـم تشـريحها وأنهـا توارت في التراب في أحد قبـور الصدقـة وأن أحـدا لـم يعـرف القاتل ولم يعرف للمقتول أقارب ، كما أن أحداً لـم يتقـدم لاستلام الجثة ، وأن النيابة العامة حفظت التحقيق لعدم معرفة الفاعل .

ذهـب إلـى وكـر العصابـة يسـتطلع الأخبـار ، فوجـئ بهـم مجتمعين . بادرهم قائلا :

- أقتلتموه .. ماذا جنيتم ؟ ..

رد كبيرهم قائلاً :

- من ؟ ..

أجاب : ألا تعرف ؟ ..

استهزأ به قائلاً : لا .. لا أعرف .

- أبو نقاية يا متغافل .

-أبو نقاية !!..

بدر منهم جميعا علامات الاستغراب . وأنكـروا أن لهـم ضلعـاً بالحادث . وأنهم كانوا متفرقين كمـا أمرهـم أبـو نقايـة بعـد إنجـاز العمليـة الأخـيرة . ولأول مـرة يسـقط علـى الأرض ويبكـي وهـو يقـول : إذاً ضـاع دمـه هـدرا . هنـاك مـن يعـرف مـا فعلنـاه ويترصدنا . لا .. لا .. لن امضي في هذا الطريق أبداً .

انسلخ منهم على زعم أنه لن يعود إلى الإجرام مرة أخرى .
وكان يرتّب لأن يقتنص الكنز المدفون في المصرف . لا وارث له . ولا مستحق . لا يؤول إلا لمن أودعه ، أو للمصرف بعد عمر طويل .

وبدأ عطوة يتعرف إلى أحد العاملين في السجل المدني .
ويتودد إليه . يريد البطاقة الشخصية جديدة باسم الفقيد وعليها صورة العبد لله ، مختومة بختم لا زيف فيه ، ومبصومة ببصمته . هذا تغيير في الشكل ليس إلا . عرف أن الرجل ضعيف الشخصية في حاجة إلى النقود . مهزوز وأن بقليل من المال يمكن أن يحركه بإصبعه ويقضي وطره . ودفع بصور له حتى يضع واحدة منها على البطاقة الجديدة والأخريات في استمارة البطاقة .واستخرج له الرجل بطاقة كاملة الأوصاف تلتصق بها صورته بقوة .

كان يعرف أن الفقيد لم يدخل السجن يوماً . ولم يتّهم في قضية من القضايا . وليس هناك ملف لدي النيابة العامة أو الشرطة باسمه . بل لما مات دفن وهو مجهول الهوية ، لأن هويته كانت في الحقيبة التي يمسك بها عطوة . ونفح العامل ضعيف الشخصية المال ومضى والبطاقة في جيبه . كان ذلك المال من بقايا نصيبه من العملية الأخيرة التي اخذ فيها الفقيد نصيب الأسد .

امتنع عن دخول الملاهي الليلية حتى لا يفقد نقوده . صار متقشفا يحتجز المال حتى لا يفنى . إنه زاهد إلى يوم موعود . يوم يسترد الكنز فيبعثر بعد ذلك كيف ما يشاء .

طفق يقلد توقيع الفقيد حتى أتقنه . وكان سهلاً لأن الفقيد كان لا يجيد القراءة والكتابة ، فلم يتمكن من إتقان شكل معين يصعب تقليده . بالإضافة إلى أنه يجيد القراءة والكتابة فقد غادر المدارس في الصف الخامس الابتدائي .

وقف مترددا كم يسحب من النقود . أيسحب مائة ألف أم مائتين أم ثلاث مائة . إنه لو سحب جزءاً من النقود المودعة فسوف يتعرض للخطر مرة أخرى . ومن أين الخطر وبطاقته سليمة مائة في المائة . لكن أفراد العصابة قد يترصدونه ويبلغون عنه أنه منتحل شخصية الفقيد . وكيف يعرفون والأمور كلها سارت في سرية تامة . وأخيراً قرر أن يسحب كل النقود . ودفع بمظروف للصراف ليودع فيه النقود . هكذا يقتل القلق لأنه لن يعود مرة أخرى إلى المصرف ولن يستعمل البطاقة المشبوهة وقد يرتبك في المرات القادمة ويفتضح أمره . فما دام ليس متماسكا من الداخل فإن ذلك سوف ينعكس على الخارج .

وتنفس الصعداء ، وهو يخرج مع الخارجين . واحتكت به امرأة وصرخت فيه أن يتأدب . واجتمعت المارة حواليهما . وصممت المرأة أنه لم يتورع في ارتكاب الفحشاء أمام الناس .وأشارت إلى أثنين شاهداه وهو يقرصها في وركها . فعل

فاضح في الطريق العام . صممت المرأة علـى أن يقتاد إلـى قسـم الشرطة ليكون عبرة لغيره ممن يتجرءون علـى النسـاء . وارتبـك عطوة . ورفع يديه يعلن أنها بيضاء ولا سوء فيها . ولم يدرك أنه يرفعهما خاليتين من محفظة الفقيد والمظروف السميك . ذلك الذي جمع فيه نصيب الأسد الذي أودعه صاحبهم في المصرف .واقتيـد عطوة إلى القسم والمرأة لا تفتأ تقسم برأس أمها أن تربيه . ومعها الشاهدان يؤكدان كلامها . وبدأ التحقيق وأصرت المرأة علـى أنـه خدش حياءها ، وأصـر عطـوة علـى أنـه لم يرتكـب منكـراً ولـم يلمسها أبداً . غير أن أحداً لم يصدقـه . ووجـد عطـوة الشـاهدين يصران علـى أنـه .. وأنـه .. وأنـه .. وتطـابقت شـهادة الشـاهدين حينما استمع الضـابط لكـل منهمـا علـى حـدة . وأدرك عطـوة أنـه إزاء مؤامرة لن يفلت منها . اكتشـف عطـوة وهـو راقـد فـي سـجن القسم أن النقود اختفـت مـن يـده وكذلـك محفظـة الفقيـد فهـل لهـذه المرأة ضلع ؟ .. وهل استأجرت الشاهدين .. وهل كانت العصابـة تـترصده ودفعتهـا إليـه ؟ أم أنـه الرجـل المهـزوز الـذي زور لـه البطاقـة كـان وراء المؤامـرة . كـل مـا عرفـه عطـوة أنـه اصطـاد غزالا وتم اقتناص الغزال منه .

دق الرقيب عبد الجبار الباب الحديدي ، وصرخ : ناموا .

وما كاد الزعبلاوي يسمع الكلام حتى انتقل إلى فراشه ونام .

أنا الزبرجد

(١)

قصص عن الطاغية

وصل إلى علم الفتى أن ملك دولة الزبرجد قد طغى وبغـــي . كانت الحكايات التي تصل إليـــه تثـــير أشـــجانه وتقلـــب عليـــه المواجع . الحكاية الأولى كانت تثير التقزز . فقد عقـــد الملـــك مجلس الحرب في دولته . وعرض على الوزراء الخاضعين لـــه نيته في شن هجوم بري على جارته دولة النار . . وأعترض أحد الوزراء على ذلك . قال : كيف نشن حرباً علـــى إخواننـــا فـــي الدين ؟ .. قال : هذه أولاً مشيئتي . ومن يعترض مشيئتي أنسفه من أمامي . وثانيًا يجب تأديب هذه الدولة تمامًا . حتى لا تقـــوم لها قائمة . إن سيادتها هي رهن مشيئتي . سأل الوزير محتـــدًا : ماذا فعلوا ؟ .. قال الملك : استولوا على أرض لدولتي وأريـد أن أستردها . قال الوزير : لكن الملك السابق اتفق معهم على منحهم هذه الأرض ، ويجب علينا أن نحترم المواثيق الدولية يا مولاي .

قال وقد ثار من الغضب على الوزير : وأنا لا أحترم المواثيـــق الدولية يا معالي الوزير .

نهض الوزير محتجًا ، وأثار قيامه الملك ، فأخرج مسدســـه ، وأرداه قتيلاً ، ثم ألتفت إلى جمع الـــوزراء ، وقـــال : مســـكين أنتحر . ألم ينتحر ؟ .. قتل نفسه بنفسه ؟ .. قال الـــوزراء فـــي نفس واحد : لقد غضب على نفسه لتطاوله على مولانــــا . ورن الجرس فدخل الحراس . وقال لهم الملك : انقلوا ذلـــك الرجـــل خارج القصر ، ألقوا به في الصحراء ، لقد فارق الحياة بإرادته . والتفت إلى الوزراء ، فقالوا في نفس واحد : نعم يا مولانا .

والحكاية الثانية ، أن الملك ملأ السجون بالمعارضين ، كـــان الكثير من الناس غير راضين عن الحرب . فكانت شرطة المـلـك تدخل المنازل عنوة ، وتقبض على مـــن يـــهمس بكلمـــة تنتقـــد الملك ، فيتم القبض على الهامس . ويودع في السجن ، ويعـــذب عذابًا مبرحًا .

ولما نفذ مال ميزانية البلد ، فرض الملـــك ضرائب جديدة على أصحاب المحـــلات والمصـــانع وأصحـــاب الورش . كانت الضرائب ثقيلة على جيوب الفقراء خفيفة علـــى

جيوب الأغنياء . ولما عارض صحفي ذلك الوضع ، اغتيل في وضح النهار أمام جريدته ، ولم يعرف أحد من الفاعل . كانوا ثلاثة أطلقوا النار وولوا الفرار . وبعد يومين صودرت رخصة الجريدة التي كتب الصحفي فيها المقال . وحاول أن يجد زملاء الصحفي القتيل وظائف في جرائد أخرى ، لم يجدوا ، فلزموا بيوتهم ، ثم فكروا أن يعملوا أعمالاً أخري في غير الصحافة .

وعارض أحد المواطنين قانون الضريبة الثقيلة ، ورفع دعوى أمام المحاكم ، وشطبت الدعوى بعد شهر من رفعها لعدم حضور المدعي ، وسأل الناس أين ذهب الرجل فلم يعرف أحد . ولم يحاول أحد الصحافيين أن يسأل عنه في بيته ، وينشر الخبر ، ، ولكن عُرف أنه غادر البيت إلى سكن آخر لا يعرفه أحد . وأغلب الظن أنه اختفى من الحياة .

شعر الفتى أن من واجبه أن يذهب إلى ذلك الطاغية ، ويوقفه عند حده . لا يريد أن يعزله إنما يريد أن يقومه .

(٢)

جئت أقابل ملككم

لما بلغ الفتى القوى أن طاغية دولـــة الزبرجـــد مـــن البـــلاد المجاورة يسوم أهلها العذاب ، يفرض سلطانه علـــى الجميـــع ، ويتبع الشعب أوامره صاغرا ، وهو منها نافر . يخسف بحقـــوق الناس ، ويضع العراقيل أمام تحركاتـــهم . كأنمـــا يعـــد عليـــهم أنفاسهم . همس الفتى لنفسه لا بد أن أتوجه إليـــه لهدايـــة هـــذا الطاغية . سأدعوه أن يثوب إلى رشده ، وأن يعيد إلـــى شـــعبه كرامته وعزته وقدرته على تصريـــف الأمـــور . وأن يـــنزوي ليصبح مجرد رمز فقط وإذا خلعه الشعب صغر لإرادته . وهكـذا يتوقف عن نهب أموال الناس ، وخلع المناصب على آله ، ووقف الهبات على أعوانه ووقف الضرائب والرسوم الجائرة واطـــلاق

حريات العامة . يجب أن أوظف قواي الخارقة في خدمة المجتمعات المظلومة ومنها دولة الزبرجد . هناك ذلك الطاغية يقول : أنا الزبرجد . وسأجعل شعبه يقول : نحن شعب الزبرجد .

سافر الفتى مشيا على الأقدام ، فالخطوة لديه بألف خطوة مما يقدر عليه الرجل العادي . لا يشعر في السفر بتعب ، ويخطو الفراسخ بعد الفراسخ فلا يحس بوهن . كانت الرمال تنتفض تحت قدميه ، وتتبعثر وراءه ، والصحراء مترامية الأطراف مقفرة ، تثير العطش ، لكنه لا يعطش . وعند بوابة الحدود لدولة الزبرجد ، أوقفه حرس الحدود . وبرز له مأمور الجمرك .

وسأله : هل حصلت على تأشيرة بالدخول ؟

قال الفتي : جئت أقابل ملككم .

قال المأمور : لا بد حتى تدخل البلاد أن يكون على جواز سفرك تأشيرة بالدخول . وأين هو جواز السفر ؟

قال : أنا لا أحمل جواز سفر . ولا احمل تأشيرة . وأريد أن أقابل ملككم .

دخل الفتى القوي من بوابة الجمـــرك ، حـــاول العســكر أن يتجمعوا حوله لمنعه من الدخول ، قبضوا على يديه يمنعونه مـــن المروق ، غير أنهم قبضوا على خيال ، فهل جسم هذا الفتى خيال أم أنه خيال مجسم ؟ . إن من قدراته أن يتحول إلـــى طيــف لا يمسكه أحد . يبدو خيالا ولكنه ذو عينين وشفتين وصوت مسموع وأعضاء تتحرك كباقي البشر .

مرق الفتى من بين صفوف الجنود المحتشدة ، ومـــا كـــادوا يخطون نحوه خطوة حتى خطا هو ألف خطوة . وصـــار بينـــهم وبينه آلاف الأميال . وطلب مأمور الجمرك الشـــرطة يريـــد أن يستعين بها في القبض على ذلك الخيال المجسم أو الجسم المتخيل . ضحك رئيس الشرطة وسأله : هل تخرف ؟

مضى الفتى في صحراء شديدة الحرارة ، وطأة الهواء الجاف شديدة تعوق الأنفاس ، لكنه كان كمن يمشي في جنة ، هواؤهـــا منعش ، وحرارتها نعيم مقيم . إن من قدراته الخاصة أن يمشـــي والمناخ حوله ربيع والحرارة منعشة والأمطار تبدو سلاما عليـــه ولا تحمل أذي أو ضررا به .

اعترض حراس قصر الملك الفتى ، وهو يحاول أن يدخل من بوابة القصر الواسعة العريضة ، وسأله كبيرهم : إلى أين ؟ ..

قال : جئت من بلادي لأقابل ملك دولة الزبرجد . سأله رئيس الحرس : ولم تقابله ؟

قال الفتى : جئت أهديه إلى الصراط المستقيم .

ضحك رئيس الحرس ، ونظر إلى الفتى نظرة ساخرة ، وقال بتهكم : ولكنه لن يقابلك .

قال الفتى : ولكني سأقابله .

ما كاد رئيس الحرس يأمر جنده أن يقبضوا على الفتى ، حتى كان الفتى يسير في دهاليز قصر الطاغية . وشاهد الروعة في الأثاث والرونق في زخارف الحوائط والتحف المرصوصة على الجانبين . وعرف الفتى أين يقع مكتب الطاغية ، ورأى هناك الحرس يقفون على بابه ، مدججين بالسلاح ، والسلاح مستعد للانطلاق عند أول أمر يصدر إليه .

أعترض الحرس سبيل الفتى ، وهو يحاول أن يمرق من الباب ، قال الفتى : جئت لأقابل ملككم . سأل كبير الحراس بخبث : وكيف دخلت ؟

ضحك الفتى وقال : عنوة . مثلما سأدخل الآن عنوة .

نظر الحارس الكبير إلى الباب المغلق واستغرب كيف يدخل هذا الجسم الهائل لهذا الفتى عريض الصدر ، طويل القامة ، وما كاد يعيد النظر من جديد إليه ، حتى وجده يمرق من خلال الباب ، وهو مقفل . يدخل الحجرة وهي لا تزال مقفلة ، سقط الرجل مغشيا عليه ، وانشغل الحرس بإفاقته . إن من قدرات الفتى العجيب أن يخترق الصلد من الأشياء ويتعداه .

رأى الفتى الملك الطاغية جالسا إلى مكتبه يكتب . بجانبه حاسب آلي على اليمين . وصفوف من الكتب على الشمال . يبدو مستغرقا في الكتابة . وشاربه الكث يرقد على فمه بكبرياء . ويحك ذقنه الناعمة من حين لآخر كأنما يستخلص من هذه الحكة الأفكار المنيرة . . ويتطلع إلى السقف برهة كأنما يجد فيه الكلمات التي سيدبج بها خطابه إلى الشعب . ولا يتوقف عن تقليب قطعة من الحلوى في فمه بلسانه . حانت منه نظرة إلى الفتى واقفا أمامه . قال مزمجرا : من أنت ؟

قال : أنا قادم إليك من بلاد الماء العذب لأهديك إلى الصراط المستقيم .

سأل متجاهلا ما يقول : وكيف دخلت هنا ؟

قال : إن لي قدرات خاصة أدخل بها وأخرج . أنفذ من الحديد . ولا أموت إلا بإذن الله . ولما عرفت أنك طغيت وبغيت جئت لأهديك إلى رشدك وأوصيك خيرا بشعبك .

ضغط الطاغية على الزر فأنطلق صوت الجرس عاليا يجلجل . فتح الحراس الباب . والفتى واقف ثابت الجأش ، وقال على الفور : اقبضوا عليه .

حاول الحارسان أن يقبضا على الفتى ، غير أن سدا منيعا وقف بينهما وبينه . قال الفتى : لن يتمكنا أن يقتربا مني .

أطلق الطاغية أوامره صارخا : أطلقا عليه الرصاص .

غير أن الرصاص أخترق الفتى ، ورشق في الحوائط كأنما كان يمر في جسم هوائي . انبهر الحارسان . نظر الفتى إليهما بقوة . فبدا كأنهما ينصهران . وتحللت صورتهما . وذابا . واختفت صورتاهما وتلاشتا في فضاء الحجرة . وما كادا يغيبان

عن الأنظار حتى قال الفتى : أنت لن تستطيع معي شيئا . يجب أن ترضخ لمشيئتي وإلا صرت مثلهما .

قال الطاغية منبهرا مضعضعا : ماذا تريد مني ؟ ..

قال الفتى : أريد أن تعيد للشعب سلطاته .

سأل الطاغية : وكيف أعيد للشعب سلطاته ؟ ..

قال : تتوقف عن إصدار الأوامر . وتعيد الثروة التي نهبتها . والمال الذي أغدقت به على أهلك وأعوانك . وتترك الشعب ينتخب ممثليه . والممثلون يشرعون ويختارون حكومتهم . وتنشر الوزارة العدل وتمنع الفساد . وتقيم المساواة بين الناس . وتطلق سراح السجناء الذين دخلوا السجن ظلما .

قال الطاغية : إذن تريد أن أتحول من صاحب سيادة إلى رمز . مثل بعض ملوك الغرب .

قال الفتى : أمامك فرصة أن تنفذ ما أمرتك به وإلا تحولت إلى هشيم تذروه الرياح .

انصاع الطاغية خائفا وهو يضمر شرا في نفسه وراح يقول : إذن فلنبدأ بالانتخابات .

وما كاد الفتى ينصرف ، حتى رأي الطاغية أن الجنديين قـــد رفعت عنهما سحابة بيضاء كانت تغطيهما وتخفيهما عن العيون . وكانا واقعين على أرض الحجرة مغشيا عليهما . ولم يموتا ولـــم يتبخرا وإنما كانا مختفيين بقدرة خفية لا يعرفها .

(٣)

هذا هو الحق يا أبي

أذاع الطاغية على الناس ، أنه قرر أن يحكم الشعب نفسه بنفسه . وأن يختار من الآن فصاعدا ممثلين عنه . وأن يختار الممثلين وزراء ينفذون القوانين التي يعتمدها ممثلو الشعب . وان تدار الدولة مثلما تدار في غرب الأرض . وأن يحال كل مجرم إلى القضاء ليحكم في أمر جرمه ويعاقبه إذا كان مذنبا ، وأن تسود العدالة في المنازعات بين الناس . وأن توقف الحرب بين دولة النار ودولة الزبرجد . وأن يعتق السجناء في سجون المملكة الذين صدرت ضدهم أحكام ظالمة . وأن يعاد النظر في الضرائب والرسوم .

لم يصفق الشعب للطاغية لأنهم يدركون أن ذلك الأمر لن يحدث ، إنما استغربوا فقط أن يعلن ذلك الملك الطاغية هذا الأمر بنفسه ، فكثيرا ما تشدق الطاغية بهذه الكلمات عن طريق وزرائه ، ولم ينفذ شيئا منها . ووعد الطاغية أن تكون الانتخابات خالية من التزوير أو القهر أو التحيز .

وما كادت الانتخابات تبدأ حتى شلت أيدي رؤساء اللجان الذين يحاولون تزوير إرادة الناس .

وتجمد أصحاب البلط وهم يخرجون من ديارهم . تجمدوا أمام أبواب بيوتهم كأنهم تماثيل من رخام ناصع البياض .

وتوقفت ألسنة المزايدين حتى أنهم أشاروا إلى أفواههم المشلولة كأنهم يمثلون فيلما صامتا سبق عرضه في بداية القرن العشرين .

وامتنع الناس عن الذهاب إلى اللجان الانتخابية . كانوا يريدون أن يذهبوا فوجدوا أنفسهم مقيدين في مقاعدهم .

دخل الفتى على الطاغية وهو يقول : إذا كنت أمرت رجالك بالتزوير ، وتفرض إرادتك على الناس بواسطة أعوانك ويختارون ممثلين لك في المجلس التشريعي ، فأنت واهم ولن يكون لك ذلك . أنا قادر أن أوقف الشرير والسافل والمجرم عند حدودهم . لن يتمكن أحد من تزوير إرادة الناس . إن قوتي التي وهبني الله قوة هائلة تفرق بين الأشرار والأخيار . توقف الأشرار وتطلق سراح الأخيار .

أصدر الطاغية أمرا بإلغاء الانتخابات وإعادتها مرة أخـــرى وعد الناس ألا يتدخل أحد فيها . ونظر إلى الفتى وسأله قائلا : ما رأيك ؟

دخلت في هذه اللحظة بنت الطاغية ، آية من آيات الجمـــال ، ترفل في ثوبها ، وقالت : هذا هو الحق يا أبي ؟

سأل الطاغية ابنته : ماذا جاء بك؟

قالت : جئت استطلع ما إذا كنت قد عـــدت إلـــى الصـــراط المستقيم بإرادتك أم أن هناك حقا فتى يدعوك إلى ذلك . وهـــاأنذا تأكدت أن بالفعل هناك فتى .

نظر إليها شزرا ، وقال للفتى كأنه يحاول أن يتخلـــص مـــن ابنته : ما رأيك لو زوجتك إياها ؟

رأى الفتى من قراءة عيني الطاغية أنه يريد أن يزوجه ابنتـــه حتى يتقي شره . يريد من هذه المصاهرة أن تعمي عيني الفتـــى عن الحق ، وأن يتحول من آمر ناه إلى خاضع ذليل لأنـــه لـــن يعض يد صهره ، ولن يتمكن من مخالفة ابنته الحبيبـــة ، ولـــن تؤذي ابنته أباها رغم أنها تعمل الآن عكس ذلك . قال الفتـــى :

هذه أنثى ناضجة . يتمناها كل إنسان . لكن إذا كنت تريد أن تجعلني المصاهرة خانعا لا أطالبك بحقوق الناس فأنت واهم .

قال الطاغية بذلة : أفعل ما تشاء لن يجادلك أحد . وهمس لنفسه : ما دمت أجلس على هذا العرش فلا أهمية لشيء آخر .

فجأة برز الفتى في التلفاز الذي أمام الطاغية . وكان خافت الصوت ، فرفع الطاغية الصوت حينما رأى صورة الفتي على الشاشة الصغيرة . ووجد الفتى يتكلم وهو واقف أمامه صامتا . كيف فعل ذلك الفتى المعجز ؟ .. كيف يقطع أرسال التلفاز ويذيع بيانا إلى الأمة ، وهو واقف أمامه صامت يتأمل جمال ابنته ليوافق على خطبتها أو يرفضها .

قال الفتى في التلفاز : سوف تجرى الانتخابات من جديد . وعلى رؤساء اللجان الانتخابية أن يكونوا على الحياد . لا تزوير . لا غش . لا خداع . أصحاب البلط يمتنعون . هؤلاء الذين يدلون بأصواتهم في عدد من اللجان سوف لن يدلوا إلا أمام لجنة واحدة بها أسماؤهم . وإذا نووا ذلك فسوف يتوقفون في مكانهم ولن يتمكنوا من غش الناس . وعلى الناخبين أن يختاروا بملء إرادتهم مرشحيهم في المجلس التشريعي . وعلى الحكومة أن تعد

أسماء الناخبين بصدق دون زيادة أو نقصان فلا تضيف أسماء المتوفين ولا تحذف أسماء الشباب أو النساء . يا أيها الناس اختاروا ممثليكم بحرية ، فأنتم الآن أحرار في إراداتكم . أنتهي عهد أنا الزبرجد وجاء عهد نحن الزبرجد .

انتهي خطاب الفتى وسمعه الناس جميعا واستبشروا عهدا جديدا لا صلة له بالطاغية .

نظر الفتى إلى الفتاة بنت الطاغية وسأل : هل تقبلين خطبتي ؟

. سألت : ومتى نتزوج ؟

قال : حين يعم الخير والفضيلة والصلاح أرجاء المملكة .

قالت : ومتى يحين ذلك ؟

قال : عما قريب بإذن الله .

خرج الفتى يبحث عن عمل في المملكة . ولم يجد غير التشييد والبناء . فإذا كان له هذه القوة الهائلة فليضعها في خدمة البناء . ووجد بناء جديدا يشاد فأنضم إلى زمرة البنائين . وفي البداية كان يحمل الأسمنت والطوب ثم بمرور الوقت أصبح يضع الطوبة فوق الطوبة ويبني الجدار بعد الجدار . ويشيد به صاحب العمل دون أن يعرف أنه ذلك الذي حجم من طغيان الملك المستبد

. وكان يعطيه اجره قبل أن يجف عرقه ، مما سهل عليه السكن في منزل متواضع يراقب منه جريان الأمور في المملكة .

(٤)

ما أنا إلا بشر مثلكم

لما تكون المجلس التشريعي في مملكة الزبرجد .لم يحضر الملك الطاغية الافتتاح ، وجاء الفتى القوي واعتلى المنصة بعد أن أستأذن الرئيس ، وقال : أنتم مجلس يمثل الشعب تمثيلا صادقا .. أنتم وافق عليكم الشعب دون تزوير أو غش أو تدليس في إرادته . أنتم عليكم الآن أن تختاروا حكومتكم . وحكومتكم تنفذ القوانين التي تشرعونها . القوانين لن تفرض بعد اليوم .

قال واحد من النواب : ألن يختار الملك الحكومة ؟ .. قال الفتى :الحكومة بنت الشعب لذلك يختارها ممثلو الشعب .

قال واحد من النواب : ولكن العمل جرى على أن يختار الملك الحكومة ؟ ..

قال الفتي : ذلك حينما كانت كل السلطات في قبضته أما الآن فعليكم أن تعدوا دستورا وترجعوا كل السلطات للشعب فيه ، دستورا يرتضيه الشعب ، وسيروا عليه .

وتألفت في الحال لجنة في المجلس التشريعي لإعداد دستور جديد للبلاد . وإذا ما انتهى ممثلو الشعب من وضع النصوص . عرض مشروع الدستور على الشعب ليقول كلمته فيه .

وأختار النواب رئيسا للحكومة . لم يخطر ببال الطاغية يوما . رجل معروف بحكمته وحنكته . وأختار المحنك وزراءه من خارج المجلس التشريعي . وقال : لا يجوز أن يكون النائب وزيرا . ولا يجوز أن يكون الوزير نائبا ، لأن ذلك عمل وهذا عمل آخر . ولكن لا مانع من أن يحضر الوزراء جلسات مجلسكم الموقر . وأن يقدم النواب اقتراحات إلى الوزراء . ولو أن هناك أمما تشترط أن يكون الوزير نائبا ، غير أننا لا نريد أن نكون مثلهم . نريد أن نتميز عنهم . لا ينشغل النائب بعمل الوزارة . ولا ينشغل الوزير بعمل النائب .

صفق الأعضاء ، وأبدى الفتى رضاه ، وطلب الكلمة ، وقال : تعلموا ألا تصفقوا .

استغرب النواب كيف اختفى الفتي فجأة وكيف ظهر فجأة . وقال واحد منهم : هذا ملاك أرسلته السماء لنجدة أهل الأرض .

سمع النائب الفتى يقول : ما أنا إلا بشر مثلكم . ولكن الله أعطاني من القوى ما أقاوم به الشر والرذيلة والفساد والخطيئة .

جلس أعضاء لجنة الدستور معا ليعدوا صياغة الدستور . وجلس أعضاء لجان أخرى ينظرون في تعديل القوانين الجائرة ، تلك التي وضعها الطاغية . ومشى الناس عليها دهرا رغما عنهم .

والطاغية يرى ما يحدث ، ويقول لأبنته : ألن تكلمي خطيبك أن يرفع يده عني ؟

قالت الفتاة بمكر : لكنه لم يقتلك . ولم يؤذك . ولم يفعل شيئا مخالفا للشرع والقانون .

قال الطاغية : لكنه أضرني .

قالت تسأل : وما أوجه الضرر ؟ ..

قال : سلب مني سلطاتي . وصرت أساوي صفرا . جعلني رمزا للدولة وكنت أجمع كل السلطات في يدي .

قالت الفتاة ، وعيناها الخبيثتان تلمعان : نحن في عصر زالت فيه هيمنة الفرد الواحد على أقدار الناس يا أبي . إن الفتى نقل

الناس من عصر الطغيان إلى عصر الديمقراطية . إنـــه لـم يضرك بل نفعك ، لأنه تركك بلا عقاب . وجعلك تستمر ملكـــا رغم أننا نتعدى القرن الثاني والعشرين .

قال متحسرا : يا حسرتي .. ملك بلا سلطات . ملك بلا نفوذ . ملك لا يملك شيئا . جعل الحكومة هي التـــي تملـك السـلطات والنفوذ وكل شيء .

قالت الفتاة : الحكومة تملك في حدود القـــانون . والمجلـس التشريعي يشرع القوانين ويراقب تصرفات الحكومة . لقد كنـت إذا أخطأت لا يجرؤ أحد على نقدك.

سأل الطاغية : أنت معي أم معه ؟ ! ..

(٥)

الهيمنة أم التعاون

كانت لجنة الدستور مجتمعة حينما دخل عليها الفتى . صار معروفا في البلاد خاصة بين نواب المجلس ، وعرف بأنه رادع الطاغية ، ولو أنه ظل بين زملائه من عمال البناء مجهولا . غير أن أحد أعضاء اللجنة انبرى يسأل : كيف تدخل علينا دون استئذان ؟

قال الفتى وأعصابه هادئة : جئت أرشدكم إلى طريق الديمقراطية . وقد عشتم مع الطغيان عشرات السنين وتشبثتم بأساليبه . ولن يتسنى أن تتغيروا إلا إذا نبهكم من يحب لكم الخير .

استمر العضو يحتج وهو يقول : نحن أدرى بشئون بلدنا . وليس لغريب أن يوجهنا أو يرشدنا .

قال الفتى يقرأ ما بداخل عقل العضو : أنت من أعوان الطاغية السابق . لست أدري كيف خدعت الناخبين ، ودخلت إلى

المجلس التشريعي . وخدعت الأعضاء والتحقت بأعلى اللجان وهي لجنة إعادة صياغة الدستور . ولكن هذا يحدث في الديمقراطية يمكن أن يخدع الناخبون في فرد أو أكثر من فرد . وأنا الآن أتوجه إلى الجميع وأسألكم هل تريدون نصيحتي ؟

صاح المجتمعون ورفعوا أيديهم أنهم يقبلون نصيحة الفتى ، فقال : ها أنت ترى أنهم يوافقون . ثم استطرد قائلا : أريد أن ألفت نظركم إلى أن الدستور القديم ورد به باب عن الحقوق والحريات العامة . لكن تلك الحقوق والحريات كانت تنتقص بسبب الإحالة إلى القوانين . والمطلوب منكم أن تصيغوا النصوص بحيث لا تأتي القوانين وتهدرها .

ثم قال الفتى : أريد أن توزعوا السلطات ولا تجعلوها في يد واحدة . وأن تستقل كل سلطة عن الأخرى .

. وأن يكون هناك سلطة للتشريع . وسلطة للتنفيذ . وأن يكون هناك سلطة لرقابة تنفيذ القوانين . ثم سلطة للقضاء تفض المنازعات بالعدل وتوقع العقوبات على المارقين الخارجين على القوانين . وأن تمنعوا هيمنة سلطة على أخرى .

سأل أحد الأعضاء : ما معنى هيمنة سلطة على أخرى ؟

قال الفتى : معني ذلك ألا تتنازل سلطة عن اختصاصاتها لسلطة أخرى . لا يجوز مثلا أن يكون التشريع لسلطة فتتنازل عنه لسلطة أخرى أو أن يكون القضاء لسلطة فتكلف هذه السلطة سلطة أخرى للقيام بالقضاء بدلا منها . ذلك كله لمنع عودة الاستبداد إلى البلاد . الهيمنة مرفوضة أما التعاون بين السلطات فهو مطلوب . يمكن أن تقترح سلطة مشروعات القوانين على سلطة التشريع ، لكن يبقى لسلطة التشريع إقرار المقترحات أو رفضها . ويمكن أن تقوم سلطة بفض المنازعات بين الناس ولكن يبقى الحكم النهائي لسلطة القضاء .

(٦)

عليكم بتعليم الشعب

تألفت الوزارة ، واجتمع مجلسها ، وما كاد الوزراء يتكلمون ، حتى وجدوا الحرس يحول دون دخول الفتي إلى مجلس الوزراء . قال الفتى : لن تستطيعوا أن تمنعوني ، فأنا لا يمنعني أحد . ولما سمع رئيس مجلس الوزراء الضجة في الخارج ، خرج ليتقصى الأمر ، فوجد الحرس يتجمعون أمام الباب يحولون دون دخول الفتى إلى المجلس . سأل رئيس الوزراء : ما هناك ؟

قال كبير الحراس : هذا الفتى يريد أن يدخل إلى المجلس عنوة .

وكان رئيس الوزراء يعرف الفتى ، إذ رآه في المجلس التشريعي وهو يخطب وتعرف عليه وشكره على إنقاذ البلاد من مخالب الطاغية . وكان يعرف أنه السبب في إنقاذ البلاد من الاستبداد والظلم بفضل قواه الخارقة . قال : تفضل . أفسحوا له الطريق .

قال الفتى : أنا أدخل الحجرات من أبوابها ، ولو أني إذا أردت أن ادخلها من جدرانها لدخلت . ودخل من الجدار ليؤكد قوته الخارقة ، فذهل الجميع . وقف الحرس لا يتحركون . وقفل رئيس مجلس الوزراء باب حجرة المجلس ، والوزراء مستغربون دخول الفتى من الحائط كأنه مقدمة لإظهار معجزاته . وقال وهو يتماسك من هول المفاجأة : تفضل أجلس معنا .

وشد كرسيا قريبا منه ووضعه أمام مائدة الاجتماع نصف البيضوية التي يجلس إليها الوزراء .

قال الفتي : جئت أنبهكم إلى ما يجب . جئت إلى بلادكم حينما استفحل طغيان الملك . جئت لأحد من الاستبداد الذي أهدر كرامة الناس وعزتهم . وها هو الشعب قد اختار ممثليه . وأنتم قد اختاركم ممثلو الشعب . وعليكم تنفيذ القوانين التي يصدرونها . أما التعسف في استعمال السلطة فهو مرفوض . إنه عودة إلى الطغيان . والخروج على القوانين غير مقبول . إنه رجوع إلى الاستبداد . والإطاحة بأحكام القضاء نوع من التعسف . والحكيم من يضع خطة لعمله وبرنامجا لهذه الخطة . وينفذ البرنامج في حدود ما لديه من أموال .

قال رئيس الوزراء : هذا ما نحن بصدده بالفعل .

قال الفتى : إذن أترككم وأنا مطمئن . وأرجو أن تعلمـــوا أن من سيحاول الاستبداد سوف يتجمد في مكانه . ومن يسعى إلـــى الفساد فسوف يرد عليه فعله . ومن ينهب أموال الناس فســـوف تعرفه الرقابة وتقدمه إلى المحاكمة .

ثم قال الفتى : لقد اكتشفت أن معظم الناس أميـــون ، فعليكـــم بتعليم الشعب في أقرب فرصة ممكنة . هذا هو الطريـــق إلـــى التنمية . ولا تقتصروا على التعليم الخاص بالقراءة والكتابة فقــط إنما يمتد عملكم إلى التدريب علـــى مهنـــة أو حرفـــة تحتاجـــها المصانع والخدمات . وافتحوا المدارس والجامعات أمام النـــاس مادامت تتوافر شروط الالتحاق بها في الفرد . ووجهوا الناس إلى ما هو مطلوب من مهارات فيهم لتنمية الإنتاج .

قال رئيس مجلس الوزراء : نحن سنناقش هذا كلـــه . ولـــن نخرج من هذه الجلسة إلا إلى ما فيه خير وصالح الوطن .

قال الفتى : إذن سأنصرف حتى تتداولوا كل هذه الموضوعات

وما كاد الفتى يفتح الباب ويخرج ويقفله ، حتى انبرى أحد الوزراء قائلاً : كيف تسمح لهذا الفتى أن يوجهنا ويتقدم إلينا بالنصح هل نحن قصر ؟ .. ورئيس المجلس يقول : هل قال ما هو خطأ ؟ .. انفتح الباب فجأة ، ودخل الفتى من جديد ، وقال وهو واقف : أنتم لستم قصرًا . ولكن أنا أرشدكم إلى ما أخركم سنين عن غيركم .

بُهت الوزير وانصرف الفتى .

(٧)

العبء الكبير

وجد رئيس الوزراء عبئًا كبيرًا يقع على عاتق وزارته . من الذي سيكشف أولاً المظلوم من الظالم في هذه السجون الكبيرة ؟ .. من الذي سيعرف أن التلميذ يستوعب دروسه أم أن المدرسين يتساهلون ؟ .. من الذي يعرف أن أموال الناس مصادرها حلال أم تكونت من السحت والاستغلال ؟ .. طلب أن يقابل الفتى ليسأله الرشد في ذلك فإن التحقيق في الأمور التي اعوجت سوف يستغرق دهوراً . وعبر التلفاز طلب أن يلتقي بالفتى . وبأسرع مما تصور ، وجد الفتى يدخل مكتبه ، ويسأله : ماذا تريد ؟ .. قال : إن إصلاح أمور الناس سوف يستغرق وقتًا ولن نستطيع محو الخطأ ورفع الضرر عن الناس في وقت قصير فكيف السبيل إلى إصلاح سريع ؟ .. قال : سوف أساعدكم بقدر الإمكان لكن عليكم أيضًا أن تساعدوا أنفسكم ؟ .. قال : كيف ؟ ..

أخذه الفتى من يده ، وقاده إلى السجن المركزي بسيارة رئيس مجلس الوزراء ، ودخل ليقابل السجناء واحدًا فواحدًا . وبمجـود نظرة في عين السجين يعرف أن هذا الإنسان مظلوم أم مجـــرم يستحق ما وقع عليه من عقاب . وهل كان الجزاء كافيًا أم أنـــه غير كاف ؟ .. وهل استوفى جزاءه وصار إنســانًا يســتحق أن يعيش مع الناس أم أنه لا يزال يحمل صفات المجرم فــي نفســه ومستعد أن يعيد إجرامه مرة أخرى ؟ ..

ذهل رئيس مجلس الوزراء والفتى ينظر إلى المجرمين ويقول لمئات منهم : هذا بريء . هذا بريء .. أخرج كل المســجونين السياسيين . ولم يعد هناك واحد منهم يستحق الإدانة . وأخـــرج المحكوم عليهم في تهم السرقة لأن الوضع في البلاد كان يدفعــهم إلى السرقة . ولكن برأ فقط بعض مختلسي أمــوال الدولــة لأن الجنايات كانت ملفقة لهم . وكذلك بعض المدانين بــالقتل أطلــق الفتى سراحهم . وخرج السجناء الطلقاء يهتفون بحيــاة رئيــس مجلس الوزراء ولا يعرفون أن السبب في إطلاق سراحهم هـــو الفتى المعجز .

وانتقل بعد السجون إلى المدارس . وقابل الفتى التلاميذ تلميذا تلميذا . وراجع فكره وما استوعبه وما بقى في ذهنه وحدد له الصف الذي يليق به . كان يكفيه نظرة إلى التلميذ ليعرف مقدار ذكائه ومقدار ما استوعبه . وطلب من المدرسين أن يهتموا بالتلاميذ لأن البلاد سوف تعتمد عليهم في المستقبل ، وإذا كان أساسهم خاويا فسوف ينهار المجتمع ، وإذا كان أساسهم متينا فسوف يرتفع المجتمع ويسمو ويتقدم .

وانتقل إلى المستشفيات وأشار إلى الطبيب المتقاعس وطلب من أن يبدأ عهدا جديدا مع مرضاه ولا يسوف في الكشف وأشار إلى الطبيب النشيط الذكي وطلب له علاوة ذلك لأنه يؤدي وظيفته بإخلاص .

وهكذا أخذ الفتى ينتقل مع رئيس الوزراء من نشاط إلى آخر ، يأمر بالإصلاح ، ويتحقق من القيام به ، وينهى عن الفساد ، ويتأكد أنه قطع دابره .

(٨)

ألم يعجبك طعامي ؟

سألت بنت الطاغية الفتى وهو في زيارة لها : ألا تأكل مـــن طعامي ؟

قال الفتى : أنا بشر .. آكل وأنام واستحم . فقط لا أشكو مـن الأمراض .

سألت الفتى : وأين تأكل ؟ .. وما هو أكلك المفضل ؟ ..

قال : أنا أعمل في البناء . وأتقاضى أجـــرا عـــن عملـــي . وأستطيع أن اشترى الأكل والملبس وأدفع إيجار المأوى .

ولم يذكر لها عن جولته مع رئيس مجلس الوزراء وكيف كان يبني ما هده أبوها ويهدم ما صنعه من فساد .

لم تسأله أين يقيم وأين عمله إنما ســـألته : ألا تــأكل عندنــا يوما ؟ ..

قال : هل دعوتني ورفضت ؟

قالت : إذن لتأت عندنا على العشاء غدا .

قال : وهو كذلك .

قرأ الأفكار في عينيها ، وكتم الأمر في نفسه . هل الطاغيـــة السفاح المستبد آكل حقوق الناس ، يمكن أن ينجـب بنتـا نبيلـة فاضلة عفيفة ؟ ..

في مساء اليوم التالي ، جاء الفتى . ونظر إلى الطعام نظــرة طويلة ، ثم بدأ يأكل . وهي تبتسم . الماكرة تبتسم ، ولا تعــرف أن نظرته الطويلة إلى المأكولات المتنوعة أمامه ، قــد حولـت السموم التي وضعتها إلى مواد لا تأثير عليها وصار الأكل سليما يمكن أن يؤكل . وأخذت تأكل من طبقها المعد خصيصـا لـها ، حريصة على ألا تمد يدها لباقي المأكولات التي أمامهما . قـال مبتسما متسائلا : أنت لا تأكلين ؟ ..

قالت : لا أريد أن أكون بدينة ، أريد أن أكون رشيقة . أريـد أن يكون قوامي مياسا فأعجبك .

حينما انتهى من الطعام ، قال بهدوء : لقد خطبتك منذ شهور . والآن أتضح لي أنك لا تصلحين زوجة .

سألت : ألم يعجبك طعامي ؟ .. ألم أوفق فـي صنـع طعـام لذيذ ؟ ..

قال الفتي موضحا : الطعام لذيذ حقا . ولكن بعد أن أبطلت مفعول ما فيه من سم صار مقبولا . لقد أذبت ما فيه من سم وصهرته . واصبح السم لا مفعول له .

سألت : سم .. من قال ذلك ؟

قال : هكذا اكتشفت قبل أن آكل .

قالت : لابد أن أحد الخدم وضع السم لك . لابد أن هناك من حرضهم على ذلك .

قال الفتى : لا تحاولى إلصاق التهمة بأحد غيرك . هذا مكتوب على جبينك .

تحسست الفتاة جبينها تلقائيا ، تحاول أن تمسح ما كتب عليه .

قال الفتي : أنت فتاة وضيعة رضعت الحقد على الناس من أبيك .. ولم ترضي من اليوم الأول أن يزول سلطان أبيك . ويعود السلطان لصاحبه . ولما لم تنفع خطبتك في ترك الصولجان في يد أبيك . أردت أن تتخلصي مني . ولكن الله حباني بقوة لا يتمكن أحد من سلبها مني .

وقبل أن يصل الفتى باب حجرة بنـــت الطاغيـــة ، ترنـــح ، وأمسك ببطنه ، وتلوى ، ثم ســـقط علـــى الأرض . وانقطعـــت أنفاسه . وبنت الطاغية تضحك بتلذذ . وتقـــول : انتصـــرت .. انتصرت .

ونادت على خدمها وقالت : ارموا هذه الجيفة خارج القصـــر في الصحراء المترامية على الحدود .

وحملوه والريح تزأر . وخرجوا من حديقة القصر الغناء إلـــى الخارج . ومشوا مسافة طويلة ثم ألقوا الجثة على الرمـــال لعـــل الحدآن تنهشها أو إذا رآها أحد الناس ظن أنها جثة فتى مات مـــن العطش .

(٩)

قتلته يا أبي

دخلت الفتاة على أبيها ، تنتفض من الفرح ، وشعرها يهتز كأنه أسلاك آلة موسيقية تعزف لحنا مرحا . وقالت لأبيها : قتلته يا أبي .. قتلته .

سأل الأب مستغربا : من الذي قتلته ؟ ..

قالت : ذلك الذي محا سلطانك .. وضيع صولجانك .

سأل ولا يزال الاندهاش يلبسه : ذلك الفتى المعجز .

قالت : نعم .. هو بعينه .

سأل : وكيف قتلته ؟

قالت : وضعت السم في طعامه . ظن أنه محا السم بنظرة من عينيه ، وإذ به يسقط ميتا .

قال الطاغية ، وقد بدأ يتنمر وأسنانه تبرز : عفارم عليك يا ابنتنا .. عفارم عليك . والآن اتركيني لأكتب خطبة العرش وأستعيد هيبتي التي افتقدتها .

جلس الطاغية يكتب خطبة العرش بنفسه : آن الآوان أن ترجع إلينا كل السلطات . لقد افسد الفتى الحياة السياسية بتوزيع السلطات واستقلالها الواحدة عن الأخرى .

تذكر وزير دفاعه السابق ، أدار قرص الهاتف وقال له : أذهب الآن وتول وزارة الدفاع لتكون على مقربة مني ساعة أن أدخل المجلس التشريعي لألقي خطبتي . تؤازرني بالجيش ، وتسند ظهري .

سأل الرجل مجادلا : وكيف أدخل وأنا لم أعد وزيرا ؟

قال : أدخل بأمري . أنا أصدرت إليك الأمر .

سأل : وإذا لم ينصاعوا لأمري ؟ ..

قال : قل لهم لقد عاد سيدكم إلى الحكم .

وألقى السماعة غاضبا . وطلب وزير الداخلية السابق ، وقال له : لقد عاد الحكم إلينا . قهرنا الفتى المعجزة . عليك أن تحيط المجلس التشريعي بالجند لتحمي ظهري . وتكون عضدا لي .

قال : ولكني لست الآن وزير الداخلية . قال : لقد عينتك .. فلا تتردد .

وقفل الاتصال مبتهجا . وارتعش شاربه الكث فــوق فمـه ، ومسح شعره الأسود بقبضته كأنه يعدل رأسه التي انحنت منكسرة زهاء شهور .

(١٠)

أنت واهم

دخل الطاغية المجلس التشريعي مبتهجا . وقد أحاط الجيش بالمبني . وأحاطت الشرطة بداخل المجلس . وأندفع إلى المنصة ليتحدث إلى الأعضاء . قال : عادت إلينا السلطة منذ اليوم عدت أنا الزبرجد . لم يعد هناك فتى معجز يحركنا ويتدخل في شئوننا . ولم تعد هناك قوة تترصد طريقنا . أزحنا ذلك كله من أمامنا . لقد عادت إلينا كل السلطات من الآن فصاعدا .

وقف عضو من الأعضاء وقال : أنت واهم .. أنت مجرد رمز . لم نرد أن نعصف بك . أما وأنت تريد أن تعصف بنا فتمهل .. يجب أن تعرف أن لا سلطان لك علينا . نحن شعب الزبرجد لا نقبل الضيم .

قال الطاغية محتجا : كيف تكلمني بهذه اللهجة . ألا تعلم أن الجيش يدعمني والشرطة تحيط المبنى من كل جانب ؟ ..

وقف رئيس مجلس الوزراء يتكلم : أنت لم تعد ملكـــا الآن . وأنت متهم بالخيانة العظمـــى . لقـــد خرجـــت علـــى الدســـتور والقانون . تريد الاستيلاء على السلطات مخالفا بذلـــك الدســـتور الذي تم وضعه والقوانين التي شرعناها .

قال الطاغية : ماذا تقول ؟ .. سوف أحاكمك محاكمة عادلـــة وسآمر بضربك بالرصاص .

قال رئيس الوزراء : هذا كلام كان يمكنـــك أن تقولـــه فيمـــا مضى . أما الآن فأعلم أن الجيش تحرك بأمري . وأن الشـــرطة تحيط المبني بأمري . لقد أمرتهما بذلك حتى يتأكد النـــواب مـــن جريمتك ولا تفلت من أيدينا .

أندهش الطاغية وراح يقول : كيف ذلك ؟

قال رئيس مجلس الوزراء : لقد توهمت أنك استرددت السلطة بمجرد أن قتلت ابنتك الفتى الذي حررنا . والآن حان لهذا الوهـــم أن يزول .

والتفت رئيس مجلس الوزراء إلى قائد الحرس وكـــان واقفـــا ينتظر الأوامر : اقبضوا عليه .. اقبضوا عليه .

وأحاطه العسكر به من كل جانب . ونزل من على المنصة ذليلا : وهو يسائل نفسه : كيف عرف ذلك الرجل أن ابنتي قتلت الفتى ؟ ..

في ذلك الحين كانت ابنته ، وهي تشاهد المنظر في التلفاز ، تجمع حاجياتها ومجوهراتها وملابسها وثيابها الداخلية في حقائب . وهي مرتبكة ، مضطربة . كيف حدث ذلك ؟ .. أيكون الشعب استيقظ ولن يعود إلى النوم ؟ .. فتح الباب ودخل ضابط وقال لها : أنت مقبوض عليك بتهمة محاولة القتل .

قالت غاضبة : لا .. بل قتلته .

ضحك الضابط وقال : الفتى لم يقتل .. إنما أراد أن يتأكد أن الشعب يوما إذا أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر . ولابد للفجر أن يطلع . ولابد للقيد أن ينكسر .. وهذا ما حدث .

وفتش الضابط حجرة الأميرة ، وعثر على قنينة وشمها فتأكد انها لسم زعاف ، فصادرها حتى تكون من وسائل الإثبات في جريمة الشروع في القتل

(١١)

شوق عارم

قال الفتى أمام المجلس التشريعي : لقد وضعت بنت الملك السم في طعامي . غير أن بقدرة من الله عز وجل أبطلت مفعول السم . كنت أريد أن أبين لها أنني أستطيع إبطال مفعول السم .. وفي نفس الوقت لاحت لي فكرة أن أرى ماذا سيكون موقف الشعب إذا اختفت القوة التي تسنده . وظهر فعلا أن ممثلي الشعب أبطال وأن رئيس الوزراء عند المسئولية التي أسندها الشعب له .

لقد ألقى بي أعوان الفتاة في الصحراء ظنا منهم أنني مت . فلما ذهبوا نهضت وذهبت لرئيس مجلس الوزراء وأبلغته بالمؤامرة . وظن أنني أخرف لكن المتابعين للملك السابق عرفوا أنه اتصل بوزيري الدفاع والداخلية السابقين وطلب منهما أن يجهزا الجيش والشرطة لحمايته ومؤازرته . غير أنهما امتنعا حتى لا يخرقا الدستور والقوانين . وأبلغا الرئيس بموقفهما .

لقد تصرفتم بملء إرادتكم وأنتم تعلمون أن ليس هناك قوة تسندكم إلا قوة الشعب ، وثبت بالفعل أنكم تقدرون المسئولية

عن بلادكم وأن الشعب يسند ممثليه وأن الممثليـــن علـــى قـــدر المسئولية التي منحت لهم . وسوف أبقى لأشاهد محاكمـــة هـــذا الطاغية وابنته ، وأمضي إلى بلادي ، بعد أن اطمأننت عليكـــم وعلى وطنيتكم ووطنكم ، فالحنين إلى الوطن شـــوق عـــارم لا ينطفئ ، وحان الوقت للعودة إلى الوطن .

(١٢)

المحاكمة

بدأت محاكمة بنت الملك فورا ، بتهمة الشروع في القتل ، وكان ذلك على أساس القوانين العادية ، على اعتبار أن الجريمة من الجرائم العادية التي يرتكبها الفرد العادي ، وحضر الضابط الذي قام بالقبض عليها ، كما حضر طباخ القصر ، وحضر الفتى المعجز للشهادة ، وكذلك مثلت أمام القضاء بنت الملك ، ووقفت خلف القضبان .

سألها القاضي الرئيس ، وأربعة مستشارين يجلسون بجانبه وهو يتوسطهم : أنت متهمة بالشروع في قتل ذلك الفتى ، فما رأيك في هذا الاتهام ؟

قالت الأميرة بثقة : غير مذنبة . أنا بريئة .

نودي على الضابط وسأله القاضي بعد أن أقسم اليمين : ما رأيك فيما قالته المتهمة ؟

قال : هذا بعكس ما قالته لي عند القبض عليها . قلت لها إنك متهمة بالشروع في القتل ، قالت : بل أنا قتلته . وقد ضبط لديها قنينة مليئة بسائل ، وأكد المختبر الجنائي أنها سم زعاف مما يستعمل في جرائم القتل بالسم .

سألها القاضي : ما رأيك في شهادة الشاهد ؟ ..

قالت الفتاة : هراء وتلفيق . أنا لم أقتل الفتي ، لقد هيأ له . كان يظن أنني أحبه ولما تخليت عنه ، ظننت أنني قتلته لهجراني له .ولكنه أمامكم لم يمت .

قال القاضي : إننا لا نحاكمك على القتل ، ولكن على الشروع في القتل . وجريمتك أيضا من قبيل الجرائم الخائبة التي أوقف أثرها لسبب ليس لك فيه يد وهو قدرة الفتى على تحويل السموم .

قالت الأميرة معترضة : إذن كيف تحاكمني على جريمة خاب أثرها ؟ .. بل هي جريمة مستحيلة لأن الفتى لا يموت .

قال القاضي يناقشها : إنك أظهرت نيتك الإجرامية في وضع السم في طعام الفتى الذي جاء إليك بناء على دعوتك .

طلب القاضي الرئيس أن ينادي الحاجب على طباخ قصر الملك ، وبعد ان أقسم اليمين سأله القاضي ، والمستشارون

الأربعة يستمعون ويدونون ملاحظاتهم : كيف أعددت المائدة التي جهزتها لذلك الفتى ؟

قال : أعددتها بأحسن الأصناف .

سأل القاضي : ألم تضع فيها سما بنـاء علـى طلـب مـن الأميرة .

قال الطباخ منزعجا : لا .. لقد أعددتها وادخلها الخـدم فـي حجرتها ولا أدري شيئا عن السم .

سأل القاضي المتهمة : ألم تضعي السم في الطعام ؟

أجابت الأميرة : لا .. بدليل أن الفتى حي أمامكم . . وإلا كان قد مات . وبدلا من ان تحاكموني عـن الشـروع فـي القتـل لحاكمتموني عن القتل . إنه يلفق لي التهمة لأني رفضت الاقتران به .

ابتسم الفتى المعجز وسأل نفسه : كيف كنت سـأتزوج هـذه الأميرة الكاذبة ؟ ..

سألها القاضي : وما السبب في احتفاظك بقنينة مليئة بالسم في حجرتك ، تلك التي ضبطها الضابط في حجرتك وقـت القبـض عليك .

قالت الأميرة : كنت أقاوم بهذا السم وجـــود الجــرذان فـــي حجرتي .

نودي على الفتى ، فأقسم اليمين وسأله القاضي : كيف عرفت أن الأكل الذي أعدته لك بنت الملك أنه مسموم ؟

قال : هذه خصيصة من خصائصي . مثلما أدخل من الأبـواب المغلقة وأنفذ من الحديد وأعبر الصحاري في دقائق دون مشقة .

سأل القاضي : وكيف نتأكد من هذه القوة ؟

قال : أعدوا سعادتكم طعاما مسموما وآخر غـــير مســموم . أشير إليكم بالمسموم وأفرق بينه وبين السليم .

قال القاضي : سنجري هذه التجربة . لكن كيف حولت الطعام المسموم إلى طعام مقبول يمكن تناوله ؟

قال : هذه هي أيضا قوة حاباها الله سبحانه وتعالى لي . جهز طعاما مسموما أحوله إليك إلى طعام سليم وصحي بقوة الشـــعاع في عيني .

سأل القاضي : وهل تستطيع أن تحول الطعام السليم إلى طعام مسموم .

قال الفتى : لم أجرب ذلك أبدا ، لأن قواي الخارقة تتصرف إلى عمل الخير . وتقف أمام الشر . بل تعجز عن فعل الرذيلة أو ارتكاب الفاحشة او الخطيئة .

سأل القاضي : وكيف تحول الطعام المسموم إلى طعام صحي ؟

قال : أنظر إليه مليا حتى أشعر أنه تحول .

تمت التجربة أمام الأميرة المتهمة ، ووضع عدد من الأطباق أمام الفتى بها طعام . بعضه مسموم والبعض الآخر غير مسموم . وتمكن الفتى من تجنيب الأطباق المسمومة بعيدا عن الأطباق غير المسمومة . أندهش المستشارون . وطلبوا منه أن يحول الأطباق المسمومة إلى أطباق غير مسمومة ويأكل منها . ولما انتهت التجربة ظل الفتى حيا . استغرب المستشارون وتأكدوا من صحة كلامه واتهامه للأميرة . وكادت الفتاة تسقط مغشيا عليها ، لولا أنها تماسكت : وهي تقول لنفسها : يا ليتني كنت اعلم ذلك لما ارتكبت هذا الخطأ . وطلب منه كبير القضاة أن يجرب تحويل الطعام الصحي إلى طعام فاسد ، فلم يتمكن .

وفي الجلسة التالية ، نطق كبير القضاة بالحكم ، وحكم على الأميرة بعشر سنوات تقضيها في السجن جزاء على ما ارتكبته من جرم .

أقيمت بعد ذلك محاكمة للملك السابق ، وكان قد تم عزله ، وقدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى ومحاولة قلب نظام الحكم . وترافع عنه أحد المحامين على مضض . وترافعت النيابة العامة ضده . وأسرفت في الاتهامات . لم يقتصر اتهامها على الفترة الحالية حينما حاول وضع كل السلطات في قبضته إنما عرضت إلى كل ما ارتكبه خلال فترة حكمه من اغتيالات وسرقات واختلاسات واعلان الحرب دون مبرر على الدول المجاورة . ومعاداة دول الجوار بل معاداة الدول الأخرى .

استمعت المحكمة إلى شهادة الشهود ، وهم وزيرا الدفاع والداخلية السابقين ورئيس مجلس الوزراء الحالي . وثبت لدى المستشارين أن الملك كان ينوي الاستحواذ على السلطات وخلع رئيس مجلس الوزراء وحل المجلس التشريعي .

حكمت المحكمة بسجن الملك السابق إلى أجل غير مسمى ، إذ تم إلغاء عقوبة الإعدام واستبدلت بالحكم بالسجن إلى أجل غير مسمى . واقتيد الملك السابق من سراي المحكمة مكبلا بالأغلال . وبينما كان يدخل السيارة التي ستأخذه إلى السجن ، برز أحد المواطنين وأطلق عليه الرصاص فأرداه قتيلا . وولي الفرار . ولم تتمكن الشرطة من القبض عليه .

وقبل أن يغادر الفتى دولة الزبرجد عائدا إلى دولة الماء العذب ، استدعاه رئيس مجلس الوزراء وطلب منه أن يبحث عن قاتل الملك السابق ، وقال له : أكمل جميلك معنا حتى تتحقق العدالة ونقتص من القاتل .

قال الفتى : ذلك سوف يقتضي منى أن أؤجل سفري شهورا طويلة ، لأني سأضطر أن انظر إلى عيون الناس جميعا واحدا بعد الآخر . وقد يكون القاتل غادر البلاد فهل أجوب العالم بأسره حتى أتحقق من براءة كل الناس وإدانة واحد منهم .

قال رئيس مجلس الوزراء : كنت أظنك قادرا على ذلك .

قال الفتى : إن الله هو القادر على كل شيء . أما الإنسان فإن قدرته محدودة ولو حباه الله سبحانه وتعالى بقوى خاصـــــة فلـــن تكون إلا ذرة في قدرات الله عز وجل .

الرياض في يوم الأحد ١٩ / ١٢ / ١٩٩٩

